الهيئة العامة السورية للكتاب
دار البعث

في ظلال الأندلس

محاضرات

تأليف
سلمى الحفار الكزبري

اختيار وتقديم

الكتاب الشهري الخامس

عندما تتألق الحياة
سلمى الحفار الكزبري وإرادة المعرفة

أ. د. عبد النبي اصطيف
جامعة دمشق

المكان يبدو غريباً، نعم إنه يبدو غريباً تماماً عندما يتلفّت المرء يمنة ويسرة ولا يجد واحداً ممن يحبهم، فـ **"المكان بالسكان"**، وهذا ما تعلمناه، نحن أهل الشام، من آبائنا وأجدادنا، و**"الجنة بلا ناس ما بتنداس"**، وهل يمكن أن تكون دمشق دمشق دون أهلها، وهل يمكن أن تكون دمشق دمشق دون من نسميهن **"نصفنا الأفضل"** «Our better half»، دون ألفت الأدلبي، وسهام ترجمان، وكوليت خوري، ونجاح العطار، وقمر كيلاني، وسمر العطار، وليلى الصباغ، وطلعت الرفاعي، ونادیا خوست، وسلمى الحفار الكزبري وغيرهن. نعم المكان يبدو غريباً عندما يفتقد المرء من يهب هذا المكان هويته، وليس من السهل على المرء أن يتلفّت حوله فلا يرى

من ترحالها المستمر بين القارات دون أن تؤرقها غربة اللسان وهي التي كانت تتقن العديد من اللغات الرئيسية في العالم، ودون أن يغرّبها بعد المكان وهي التي كانت دوماً تتأسى بـــ فيجايا لاكشمي باندیت في حملها **"قطعة من سورية نفسها"** عندما كانت تبرحها إلى مختلف أنحاء العالم الكبير. لقد كانت سلمى، ولا تزال بالنسبة لي، البعيدة – القريبة، الغائبة – الحاضرة، ومنذ متى كان الأدب غير صرح حي Living Monument، ومنذ متى كان الأديب إلا حياة حاضرة، عضواً فاعلاً في مجتمع من يقرؤه ويحاوره.

وفضلاً عما تقدم، فإن من الصعب على المرء أن يستوعب غياب هذه السيدة الدمشقية المتدفقة حياة ونشاطاً وبخاصة عندما يكونان مفعمين بالسحر، والجمال الآسر بما ينطوي عليه من حساسية مرهفة وذكاء حاد وبديهة برقية وفصاحة عذبة. والحقيقة أنه، وعلى الرغم من عشرات الكتب التي خطها يراع سلمى الحفار الكزبري (شعراً بالفرنسية، ورواية، وقصة قصيرة، وسيراً نسائية متميزة، ومقالات غنية بالمعلومات واللمحات الانسانية، ونصوصاً سيرية ـــ

الإنصاف القول بأن أكثر الوجوه إثارة وأهمية في هذه المرأة غير العادية هو **عنصر الحياة** كما يتجلى في سنيّها التي امتدت حتى تجاوزت ثمانية عقود، أو في سيرها التي تنبض بالحياة حتى أن المرء ليكاد يتلمس دفئها في كل سطر يقرؤه عن هؤلاء النسوة اللواتي اختارتهن سلمى لتفوقهن، لأنها تماهت مع كل واحدة فيهن باشتراكها معها في وجه تفوقها بالفعل أو بالقوة. وربما كان هذا هو سر السحر الذي يخالط سير سلمى التي "تنطوي على معان وقيم تهمنا قومياً وإنسانياً" على حد قول مقدم الطبعة الأولى من كتابها **"نساء متفوقات"** الدكتور قسطنطين زريق الذي يضيف متحدثاً عن مزايا هذه السير فيقول:

"غير أن أهم مزايا هذه السير في نظري هو حس المؤلفة المرهف الذي نفذت به إلى هذه الشخصيات، فجعلتهن ينبضن بالحياة. إن القارئ ليخرج من قراءة كل من هذه الفصول وهو يشعر بقرابة روحية تربطه بصاحبة السيرة. فهي مثله كائن بشري يكافح ويصارع —يصارع ما حوله وما يضطرب في داخله — ويسعد

تحركه المشاعر الإنسانية الأصيلة التي أودعها الله نفس كل كائن على هذه البسيطة. ولا فرق بين أن تكون السيدة المتفوقة التي تتحدث عنها المؤلفة، عربية أو تكون هندية أو شيلية أو بولونية، فإنها أولاً امرأة، بل هي بمعنى أعم، كما قلت، كائن إنساني تضطرب نفسه بمثل ما تضطرب به نفوسنا ويطمح عقله إلى الكشف عن الحقيقة أو إلى تحقيق الحرية أو العدل أو سوى ذلك من المثل العليا التي تشترك بها البشرية جمعاء.

وفي يقيني أن هذا هو أهم ما نجنيه من الاطلاع على سير الغير: أن تغنى نفوسنا بما عانوا وما خبروا، وأن تتفتح عيوننا للنور الذي بصروا، وأن تتولد من هذا وسواه قرابة روحية بيننا وبينهم، توسع مداركنا وتعمق مشاعرنا وتجعل حياتنا أغزر نتاجاً وأثمن قيمة وأسمى كياناً"..

وربما كان أوضح مؤشر على عنصر الحياة المتدفقة نشاطاً وألقاً وغنىً وتنوعاً في حياة سلمى الحفار الكزبري ما يمكن أن يسمى "إرادة المعرفة" The Will to knowledge لديها هذه

فيها كبار الباحثين من الأكاديميين المرموقين عندما نالت **جائزة الملك فيصل** على إنجازاتها في فن السيرة عام (١٩٩٤).

وتتجلى هذه الإرادة في:

- تعلمها اللغة العربية في منفى والدها وصحبه من الوطنيين خلال (عامي ١٩٢٧ــ ١٩٢٨) إلى قرية "أميون" في شمالي لبنان؛
- تعلمها **القرآن الكريم** على يد شيخة فاضلة في حي أسرتها بدمشق القديمة (حي الشاغور) بعد عودتها من لبنان؛
- دراستها في **معهد راهبات الفرنسيسكان** بدمشق تسع سنوات أتقنت فيها الفرنسية وتعلمت الإنكليزية فضلاً عن متابعتها دراسة العربية على يد الأديبة الرائدة "مي عجمي" في مرحلة الدراسة الثانوية؛
- دراستها الأدب العربي في مترلها بين عامي ١٩٤٢ــ ١٩٤٥ على يد الأستاذ "أبي الخير القواس"؛
- دراستها العلوم السياسية بالفرنسية وبالمراسلة مع **معهد**

- مطالعاتها في مكتبة والدها العامرة بكتب التراث،و التي كانت تتم تحت إشراف والدها (النائب في البرلمان السوري، والسياسي الوطني المعروف الذي تولى وزارات المالية والداخلية مرات عديدة فضلاً عن تسنمه رئاسة الوزارة عام ١٩٣٩؛

- انتسابها إلى **المركز الثقافي الإسباني** بدمشق ودراستها الإسبانية وإتقانها لها ونيل دبلوم رسمي بذلك؛

- تعلمها المستمر المشفوع بالبحث العلمي الجاد ولاسيما أنها ترى أن "الإنسان يتعلم دائماً، فالعلم بحر والشغف به لذة، وكلما تعمقنا بالدراسة أحسسنا أننا في بدء الطريق"، هذا البحث الذي توجته بكتابها **ميّ زيادة: مأساة النبوغ** (الذي صدر في بيروت عام ١٩٨٧).

لقد آمنت سلمى الحفار الكزبري أن إرادة المعرفة، بوصفها أبرز مؤشر على إرادة الحياة الحقيقية للإنسان، إنما هي إرادة للحياة، إرادة للحياة الحرة الكريمة التي تسعى إليها الأمة كلها، فكان صوتها لذلك أفصح تعبير عن ضمير هذه الأمة.

سلمى الحفار الكزبري
ذاكرة التاريخ والاعتزاز بالهوية

د . عبد الله أبو هيف

سلمى الحفار الكزبري (١٩٢٢ – ٢٠٠٦)، من رائدات الإبداع العربي، تميزت بعطائها في أجناس أدبية عديدة، باللغات العربية والإسبانية، والفرنسية، شعرا وقصة ورواية وسيرة وبحثا ومقالة وتحقيقا، وتألق إبداعها في مراحل عمرها كله باعتمادها على التوثيق والرؤى الفكرية والفنية، مما أدخل هذا الإبداع بالخلود، لتبقى الكزبري في الوجدان شديدة التعبير القومي والاجتماعي والإنساني والحضاري.

ألفت سلمى الحفار الكزبري ثلاثة وعشرين كتاباً، واتسمت بتنوع الإنتاج في فنون الأدب العربي، ومن أبرز كتاباتها في البحث والمقالة والتحقيق المؤلفات التالية:

- D **نساء متفوقات**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦١

- **الشعلة الزرقاء**، رسائل جبران خليل جبران المخطوطة إلى مي زيادة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٩.
- **جورج صاند: حبّ ونبوغ**، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٧٩.
- **مي زيادة وأعلام عصرها**، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٢.
- مي زيادة أو مأساة النبوغ، سيرة في جزأين، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٧.
- الحب بعد الخمسين، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩.
- لطفي الحفار: مذكراته وحياته وعصره، دمشق، ١٩٩٧.

نشرت كتابها " في ظلال الأندلس " (١٩٧٠)، أنموذجا للمحاضرات التي ألقتها بالإسبانية في إسبانيا وبالعربية في تونس وبيروت ودمشق، وأهدت الطبعة الجديدة من الكتاب (١٩٩٩) إلى سمو الأميرة سلطانة السديري، حرم سمو الأمير سلمان بن عبد العزيز آل سعود التي طلبت منها ذلك لاهتمامها الكبير بالأدب الأندلسي خاصة، ولتذوقها الأدب العربي واستمتاعها بهما، وقدم

خواطرنا وقلوبنا "، و" هذه مزية الأندلسيات التي نقلتنا اليها بسلامة ذوقها، ودقة شعورها وقوة فكرها " (ص١٤).

استحضرت في الكتاب ذاكرة التاريخ العربي والإسلامي المشرق، والاعتزاز بالهوية العربية، واللغة الجميلة المنتشرة في إسبانيا خلال ثمانية قرون مضت، وابتعاث الظلال الأندلسية والعربية المنعشة للفكر والشاحنة للهمم، والمغذية للأرواح القومية، وضّم الكتاب أربع محاضرات هي : " عاشقا قرطبة : ولادة وابن زيدون "، و" وأثرنا في إسبانيا "، و" المرأة العربية "، وأشير إلى عنايتها المطلقة بالحضارة العربية في الأندلس في هذه المحاضرات جميعها، بوصفها حضارة " علم وثقافة وفن "، و" أصالة وتفوق وإبداع " (ص٩٨).

نشر هذا الكتاب في دمشق سنة ١٩٧٠، وأبانت فيه الكزبري أن الكتاب ظلال وارفة للحضارة العربية في الأندلس، يعبق منها شذى تاريخ عربي إسلامي مجيد للأسلاف العربية بعد أن فتحوها، وأسسوا فيهاملكاً عظيماً، ثم نشروا حضارة ثقافية وعلمية وفنية شعّت أنوارها من الأندلس على أوربا كلها، يوم كانت تغطّ في ليل القرون الوسطى.

الأبعاد الواثقة بالنفس والمعمقة للتواصل الحضاري، والشوق الكبير لاستمرار العلاقات التاريخية بين العرب و اسبانيا ٠ وهذا جلي في بحثها " عاشقا قرطبة، ولادة وابن زيدون " على وجه الخصوص، وأضافت الباحثة عتبة مفتاحية استهلالية مكمنها " أن الحب هو الجناح الذي وهبه الله للإنسان يستطيع به أن يدنو منه". وأنشدت العديد من الأشعار على لسان شاعرين عظيمين في أرض الأندلس الطيبة، داعمين لأوثق الصلة بين أمتين لم يبق بينهما إلا الحب والصداقة، إلا الإعجاب و الاعتزاز بهذا التراث الخالد الذي تشاركا بتقديمه للإنسانية عرباً وإسبانيين.

توسع الاهتمام بالتواصل الحضاري العربي والاسباني في محاضرتها الثانية " أثرنا في إسبانيا "، دعوة لإزالة كل أثر الأوهام من النفوس، بما يشحذ الفكر، ويسمو بالنفس ٠ وقد عرفت بالتاريخ الإسباني من جهة، واعتزاز الإسبان بالتراث العربي المشترك من جهة ثانية، وتعبير مدن الأندلس عن الحضارة العربية والإسلامية من جهة ثالثة.

أكدت الكزبري أن أثر العرب في الأندلس لم ينقطع، وأن أثر

الموريسكوس والمدجنين في اللغة الإسبانية، والمستعمربين المحافظين على المعتقدات الدينية والمعطيات الثقافية، مثلما أوضح رافائيل لابيسا في كتابه " تاريخ اللغة الإسبانية" على سبيل المثال.

عرضت الكزبري العديد من المصادر والمراجع الدالّة على رسوخ الحضارة العربية في إسبانيا، علماً وثقافة وفناً، وأصالة وتفوقاً وإبداعاً، وهذا هو جوهر التواصل الحضاري من العراقة إلى الأصالة والحرية وثبات الرقي والأمجاد.

بينما تحدثت في المحاضرة الثالثة " المرأة العربية " عن حضور المرأة العربية منذ صدر الإسلام، إلى تأثيراتها في الانتشار العربي والإسلامي، ولا سيما الأندلس، فقد أسهمت المرأة العربية إسهاماً كبيراً في بنى المجتمع وعاداته، وفي المحاسن الإنسانية، لدى استعراض حياة المرأة العربية وأثرها في الأندلس، مما جعل المرأة الأندلسية فاعلة في الفن والأدب والشرائع والتقاليد والطقوس .

كانت العناية الأبلغ في فهم المزايا الحضارية الأندلسية هي محاضرتها الرابعة والأخيرة " الأعياد والتقاليد في إسبانيا"، على أن

وخصائصه العامة، بما يضيء أنواع الفولكلور والتقاليد في حياة إسبانيا وانعكاساتها على صور حضارتها ونهضتها العالمية ضمن تواصلها الحضاري مع العرب.

تميز إبداع سلمى الحفار الكزبري في كتابة البحث والتحقيق والمقالة بالرؤى الفكرية والفنية وأبعادها الاجتماعية والسياسية والإنسانية والحضارية والثقافية. واذكر أهم الاستخلاصات عن شغلها الإبداعي في هذه المجالات:

أ ــ العناية باللغة العربية بخاصة وباللغات الأجنبية بعامة، إذ اتقنت العديد من اللغات، ولا سيما الفرنسية والانكليزية والإسبانية، وألفّت الشعر، والأبحاث والمقالات باللغات الأجنبية أيضاً، وبادرت دول كثيرة إلى تكريمها وتقدير عطاءاتها الأدبية والفكرية في فرنسا وإسبانيا وأيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية.

ولو تأملنا مؤلفاتها لأدهشتنا عنايتها باللغة العربية، كما هي الحال في كتابها "نساء متفوقات"، مثلما دققت المفردات والتراكيب اللغوية من اللغات الأجنبية في سيرة هذه المرأة أو تلك

ب ــ الاهتمام الكافي بالوثائق والمعلومات في السير والسير الذاتية المدروسة، فقد تجنبت الباحثة إطلاق الأحكام، وزادت النظر المنهجي والعلمي في مكانة هذه الشخصيات الخالدة في "إعلاء شأن الإنسان وخدمة الحضارة"، وخلصت كتاباتها بمصداقية الوثائق والمعلومات لإظهار المعاني والدلالات في المنظومات القيمية القومية والإنسانية.

ت ــ الاتجاه إلى ربط عمليات الوعي بالمشكلات والإشكاليات والتأزمات الذاتية والحضارية، وهذا جلي في مؤلفاتها جميعاً، وأذكر على سبيل المثال، ما كتبته عن "الحبّ بعد الخمسين"، على أن الحبّ شديد التعالق في مفهوماته وتحققاته مع الأوضاع العامة، ولطالما نظرت بعمق إلى التأزم الوطني والقومي وانعكاساته على الذوات الإنسانية من خلال مآسي الحرب الأهلية اللبنانية وفتنتها الداخلية واستهدافاتها من الخارج.

ث ــ التمازج بين الذكريات والمذكرات والسير والتفكير العلمي والإبداعي والسياسي والاجتماعي، على أن السير كاشفة عن التغيير

ج ـــ تثمير الخطاب الأدبي والفكري من النجوى إلى الحواريـــة عند رصد التحولات الذاتية والإنسانية، إذ نقرأ في ســـيرة النـــساء المتفوقات أحوال الأمم والشعوب مواجهات للصعوبات والمعوقات من جهة، واستنهاضاً بالمصائر البشرية من جهة أخرى.

\ \ \

في ظِلال الأندلس

إن للجَنَّـــــــةِ بالأَنْـــــــدَلُسِ

مُجتَلـــى مَـــرأى وَريّـــا نفـــسٍ

فـــإذا مَـــا هَبَّـــتِ الـــريحُ صَـــباً

صِحْتُ: وَا شوقي إلى الأنـــدَلُسِ!

ابن خفاجة

عاشقا قرطبة

ولّادة وابن زيدون

محاضرة ألقيت

في

قاعة منتدى "الأتينيؤ"Ateneo

في مدريد باللغة الإسبانية في ١٩٦٧/١١/٣

وألقيت باللغة العربية في تونس

"دار الثقافة، ابن خلدون"

في ١٩٦٧/١١/٢٣

بدعوة من وزارة الثقافة

ومن الاتحاد القومي

النسائي التونسي

عاشقا قرطبة

ولّادة وابن زيدون

"قيل إن الحب شعلة مقدسة تطهّر بنارها وتهدي بنورها، وأنا أقول إن الحبّ هو الجناح الذي وهبه الله للإنسان ليستطيع به أن يدنو منه".

أصحاب السعادة، سيداتي، سادتي:

إن التأثر الذي يتملكني في هذه اللحظة كبير فاسمحوا لي أن أعبّر لكم عن شكري العميق بكل بساطة وإخلاص، وأن أشكر بصورة خاصة وزارة السياحة والإعلام، وهيئة منتدى الأتينيؤ اللذين شرفاني بدعوتهما لزيارة هذا البلد العزيز الذي سكنته وأحببته، فأتاحا لي هذه الفرصة الطيبة للتحدث إليكم من هذا المنبر الراقي.

عندما عزمت على التحدث عن عاشقي قرطبة الشاعرين الكبيرين الوزير ابن زيدون والأميرة ولادة بنت الخليفة المستكفي الأموي، وبعد أن استرسلت في دراسة حياتهما وآثارهما الأدبية تهيّبت خوض

الموضوع لأن التحدث عن الحب وعن الشعر مغامرة خطيرة، وأمر دقيق للغاية قلّ أن نجا من مزالقه متحدّث.

فالحب في معناه الصحيح الشامل أروع عاطفة عرفها الإنسان منذ بدء الخليقة، كان الحب وما زال خلاقاً للمواهب، بناءاً للحضارات رافعاً من قدر الأمم والأفراد، لولا الحب لما تألقت نجوم الأدب والعلم والفن في كل حدب وصوب عبر الأجيال، ولما أعطت للإنسانية ثمراتها الوجدانية والفكرية الذكية. بالحب وحده كان العطاء بغير حساب، فإنه بالقياس إلى عالمنا المحفوف بمختلف أنواع الشقاء كالغيث الخيّر الذي يروي الأرض المتعطشة فيجعل من مجدبها خصباً، ويستطيع بقدرته وسحره أن يقلب الصحراء الجافة إلى روضة مزهرة خضراء.

والحب أيها السيدات والسادة عاطفة سامية، تساوي عمقها ووضوحها، لا تحتاج إلى الفلسفة والتعقيد لفهمها وتفسيرها، أوجدها الخالق في قلوبنا لنسمو بها عن غرائزنا، ولكي تبعث في نفوسنا الأمل والعزاء، ولتغذّي عقولنا ومواهبنا وتشحذها إلى سبل

رثاء كلمة الحب المقدسة التي أصبحت تُطلق مجاناً في دنيانا على روابط مادية بخسة، وحالات شاذة، ولكني أريد أن أتحدث عن الحب الصحيح بمعناه الخلاق. قيل إن الحب شعلة مقدسة تطهر بنارها وتهدي بنورها، وأنا أقول إن الحب هو الجناح الذي وهبه الله للإنسان ليستطيع به أن يدنو منه!

وشاعرانا الكبيران ولادة وابن زيدون اللذان عاشا في قرطبة في القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) كانا أشهر العشاق في تاريخ الأدب العربي الأندلسي، ووهبا لتراثنا الأدبي أجمل الشعر وأبهى القصيد بفضل الحب الكبير الذي جذب كلاً منهما نحو الآخر، وطبع حياتهما الطويلة، وتاريخه عصرهما العظيم بطابع مؤثّرٍ وجميل. إن من ينصرف إلى دراسة حياة هذين الشاعرين في مختلف مراحلها يقف على ما تخللها من مدّ وجزر، وابتسام ودمع، ولقاء وفراق، ونعيم وشقاء، وصفاء وغيرة، فيهتزّ للأعاصير التي اجتاحتها ولكنه يمتلئ إعجاباً بالعاطفة المشبوبة التي ربطت بينهما خلال ثلاثين عاماً! فقد ظل الشاعران العاشقان ينهلان من معين حبّ متدفّق لم ينضب،

أما هــواكِ فلــم نعــدل بمنهلــه شرباً، وإن كان يروينا فيظمينــا

وأما الشعر، سيداتي سادتي فأظن أنكم توافقونني على أنه أجمــل أنواع التعبير عن الأحاسيس الإنسانية وأسماها وأبلغها. ليس الــشعر أناقة في الأسلوب وجرساً في الإيقاع فحسب، ولكن الشعر الخالــد هو، بالإضافة إلى ذلك، فكرة لكل بيت من أبياته، وبيت لكل فكرة من أفكاره. الشعر أنشودة النفوس المتطلعة إلى بلوغ عالم الخير والحق والجمال، إنه اللغة العالمية الفضلى التي لا تحتاج إلى ترجمة ولا تعترف بحدود، فالإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، والشعراء هــم رسل الجمال والسلام إلى إخوتهم في الإنسانية وخير من يعبر عــن الآلام والمسرات والأماني لأنهم مرهفو الشعور، وشديدو التأثّر، لهذا كله كان الشاعر وما زال أفضل ترجمان لخلجات نفــس الإنــسان وفكره، وأصدق معبّر عن نزوع روحه إلى الكمال، وبحثه عن أسرار الطبيعة، واشتياقه إلى الجمال.

وإذا كانت المذاهب الأدبية والشعرية في عــصرنا قــد تغــيرت واستُحدث منها ما لم يكن معروفاً من قبل فإن هنالك مذهباً خالداً

تتغيّر، وليس الشعر الوجداني الغنائي في الأندلس إلا صورة صادقة عن هذا المذهب الثابت. ويصحّ في هذا المقام أن نستعير قول المستعرب العلامة الأستاذ غارثيا غوميث Emilio Garcia Gomez فهو يرى أن الشعر العربي الذي هو عماد الأدب العربي القديم قد عرف اتجاهاً كلاسيكياً جديداً Neoclassique على يد أعظم شعراء العربية قاطبة: المتنبي، وأن ابن زيدون يُعتبر من شعراء الطبقة الأولى، ورائداً من رواد المدرسة الكلاسيكية الجديدة في الشعر العربي. كان لكل من المتنّبي وابن زيدون نفس أبيّة مشبوبة، وروح حارّة، وقدرة خارقة على شحن شعرهما بمعانٍ غنية، ورقة وحيوية، وقوة في التعبير، فاستطاعا أن يُحدثا في الشِّعر العربي ألواناً جديدة مع محافظتهما على عموده الأصلي.

فلنذهب الآن معاً إلى قرطبة القرن الحادي عشر، وَلْنَدْعُ ابن زيدون إلى وصفها لنا فقد ترك قصائد خالدة رائعة تغنى فيها بجمالها، وصوّر طبيعتها، ووصف أرباضها. وما أحسب أننا نجهل قرطبة في ذلك العصر الذهبي فقد كان فيها من القصور والمساجد أعظمها، ومن المكتبات أغناها، ومن المدارس أرقاها، ومن الأرباض أمثال

فكانت محجاً للعلماء والأدباء والفنانين، الشرقيين منهم والغـــربيين، وموطناً لأفذاذ الرجال الفلاسفة والشعراء أمثال ابن حـــزم، وابـــن حيان، وابن بسام، وابن بشكوال، وابن عمار، وولادة وابن زيدون.

أما شاعرانا العاشقان فقد عاشا في نهاية عهد الخلافة الأموية وفي عهد ملوك الطوائف حيث عرفت الأندلس أعظم إشراق شعري في رأي الأستاذ الكبير ليفي بروفنسال Levi Provencal وفي رأي الكثيرين غيره من مستعربين ومؤرخين. كان الملوك والوزراء آنذاك ومعظم الناس يتراسلون بالشعر، ينظمونـــه بـــسهولة عجيبـــة لأن أكثريتهم كانت يومئذ مثقفة في قرطبة. ومن أبلغ ما ذكرته مصادر التاريخ في هذا الصدد أنه إذا مات عالم في اشبيلية كان سكان قرطبة يسارعون إلى شراء مكتبته لشدة ولعهم بالعلم، وإذا مات مغـــنّ أو ملحن موسيقي في قرطبة كان سكان اشبيلية يتسابقون لشراء آثاره، وذلك لشدة ولعهم بالموسيقى والغناء.

لقد أسهم ابن زيدون وولادة في صنع تاريخ عصرهما الذي سُمّي بحق العصر الذهبي للشعر العربي في الأندلس، وكانا شرقيين عـــربيين بسبب عوامل اللغة والدين والتقاليد المتوارثة، كما كانـــا إســـبانيين

الغربية. كانت الأندلس في عصر ملوك الطوائف على قاب قوسين أو أدنى من عصر الانحطاط وذلك بسبب انقسامها إلى أقاليم متعددة وإمارات متفرقة في إثر سقوط الخلافة الأموية في قرطبة، فانطبع ذلك العصر بطابع الترف والمجون والتحرر من التقاليد العربية الأصلية، وتفاقمت خلاله الخلافات السياسية إذ كانت المؤامرات فيه تحاك في العلن والخفاء، كما كانت الموسيقى تصدح في سائر المقاطعات الأندلسية ليل نهار، وكؤوس الشراب تصطرع في القصور والمنتديات علناً، من غير وازع ولا رادع. أما النساء، الجواري منهن والحرائر، فقد أصبحن سافرات متحررات، وهذا ما شجع ولادة الشاعرة الشابة والأميرة الحسناء على فتح دارها لاستقبال الأدباء والوزراء والظرفاء خلال السنين الطوال.

فولادة هي، كما أسلفت، بنت الخليفة محمد الثالث الملقب بالمستكفي باللّه الذي تولى الخلافة سنة ١٠٢٤ م غير أنه أخفق في حكمه لِما كان عليه من ضعف في الشخصية، وانغماس في الشهوات، فثار عليه أهل قرطبة بعد عام من توليه الخلافة مما اضطره للفرار منها متخفياً خوفاً من القتل، ومع ذلك مات مسموماً في مدينة

النفس، كريمة الطبع، فقد ورثت عن أجـــدادها العظـــام أطيـــب الصفات، كما ورثت عن أمها وجدتها الأجنبيتين الحسن والرقة، إذ تقول بعض المصادر أن أمها كانت أمة افريقية مـــشهورة بجمالهـــا وذكائها، وأن جدتها لأمها كانت كذلك. وولادة فوق كل هـــذا فنانة درجت على قول الشعر منذ حداثتها، وأولعـــت بالموســـيقى، ونالت نصيباً وافراً من الثقافة حتى أن بدر الدين الصدّيقي ذكر أنهـــا أجيزت بالتدريس والإفتاء. شهد معاصروها المؤرخون بأدبها وظرفها وأناقتها، وبأثرها الكبير في المجتمع القرطبي، ولا سيما في حياة ابـــن زيدون وفي آثاره، حتى أن الغربيين الذين استعربوا وخصّوا الأندلس الإسلامية بالدراسة اعترفوا لولادة برفعة مكانتها في عالم الأدب وفي المجتمع القرطبي، فترجم بعضهم ما وصل إلينا من أشعارها، وكتـــب بعضهم سيرتها بإيجاز. قال (نيكل Nikl) المـــستعرب الانكليـــزي عنها: (لولا تأثير ولادة في حياة ابن زيدون لفقد الشعر العربي أنفس جواهره). وقال ابن بسام، وكان معاصراً لها: (كانت ولادة واحدة أقرانها حسن منظر ومخبر، وأما ذكاء خاطرها، وحرارة نوادرها، فآية من آيات فاطرها!) وقال المقرّي صاحب نفح الطيب: (كانت ولادة

والظرف، وتنعيم السمع والطرف بحيث تختلس القلوب والألباب، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب!).

وإذا شئنا أن نقف على نوع جمالها كان لا مندوحة لنا من الرجوع إلى ديوان ابن زيدون الحافل بوصفها والتغزل بها، فقد كانت حبه الأوحد، ومصدر وحيه وإلهامه، وسبب نعيمه وشقائه طوال ثلاثين عاماً. فمن خلال قصائده نرى أنها كانت حنطية البشرة، سوداء العينين، فها هو يقول في إثر أول لقاء:

فهمت معنى الهوى من وَحْيِ طرفِكِ لي

إن الحوارَ لمفهومٌ من الحَوَرِ

ويبدو أنه كان لها خال اسود في خدها مع أن شعرها كان ذهبياً، وقد وصفه الشاعر يقول:

مفضّضُ الثغرِ نُقْطَةٌ

من عنبرٍ في خدّهِ المُذهَبِ

وكانت ولادة رشيقة، رقيقة الخصر، فاتنة النظرات إذ قال

يـــا الْـــيَنَ النـــاس أعطافـــاً وأفتَـــنَهُم
لحظـــاً، وأَعْطَـــر أنفاســـاً وأردانـــا

أما عن قامتها الممشوقة، وجيدها الطويل الوضاء، وطلعتها البهية فها هو يقول:

يا فتيـــتَ المـــسكِ، يـــا شمـــسَ الـــضحى،
يـــا قـــضيبَ البـــانِ، يـــا ريمَ الفـــلا،
إن يكـــــن لي ـــــلٌ غـــــيرَ الرضـــــا
منـــــك لا بُلّغْـــــتُ ذاك الأمـــــلا!

وكانت تجمع إلى جمال الخَلْق براعةَ التـزيين، وعذوبـةَ الطبـع والحديث إذ قال عنها:

لـــه خُلُـــقٌ عـــذبٌ وخَلْـــقٌ محـــسّنٌ
وظرفٌ كَعَرفْ الطيبِ أو نـشوةِ الخَمْـرِ
يعلِـــلُ نفـــسي مـــن حـــديثٍ تَلَـــذُّهُ
كَمِثْلِ المنى والوصـلِ في عَقِـبِ الهَجْـرِ

بعد أن سقطت الخلافة الأموية في قرطبة وأُعلن فيها الحكم الجهوري (نسبة إلى الحاكم الجديد أبي حزم ابن جهور) تحررت ولادة من القيود وفتحت أبهاء قصرها لاستقبال الأدباء والوجهاء، وكانت لها جارية جميلة تدعى "عُتبة" اشتهرت بإتقان الغناء والعزف على العود، فكثيراً ما كانت تدعوها مولاتُها للعزف والغناء لكي تُضفي جواً مؤنساً جديداً ينقل روّاد الندوة من سحر المساجلات الأدبية إلى سحر الألحان. عاشت ندوةُ ولادة سنواتٍ طويلة فطارت شهرتُها، وأخذ الشعراء والوزراء والفنانون يتهافتون على حضورها مأخوذين بجمال صاحبتها وبشخصيتها الجذابة، فعشقها بعضهم، ومدحها أكثرهم، ومع ذلك لم تنج من النقد والذمّ. كانت لينةً قاسية، قريبة بعدية، وإلى هذه الصفة يُشير ابن باسم بقوله: (يعشو أهلُ الأدب إلى ضوءِ غرّتها، ويتهالك الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها فهي تخلط سهولة حجابها وكثرة منتابها بعلّو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة ثياب). ونحن ندرك من هذا الحديث أنها كانت تصون نفسها على الرغم من تعارض الآراء في نهج سلوكها، وظلم

وإني وإن نظـــــر الأنـــــامُ لبـــــهجتي
كظبـــاءِ مكّـــةَ صـــيدُهُنَّ حـــرامُ
يُحـــسَبْنَ مـــن لـــينِ الكـــلامِ فواحِـــشا
ويـــصدُّهنّ عـــن الخَنـــا الإســـلامُ[1]

والحق أن شخصية ولادة متعددة الجوانب تبدو للباحـــث عنـــها محيّرة بعض الشيء ولكنها في الواقع شخصية جذابة غنيّـــة تـــدعو للإعجاب أكثر ما تدعو للعجب. وهبتها الطبيعة الجمال والشاعرية والوجاهة والثراء، وكانت إلى جانب ذلك قوية الـــشكيمة، واثقـــةً بنفسها، عزيزة النفس. اختلطت بكبار قومها دون تحرّج متحديـــةً بذلك التقاليد والأعراف فتعرّضت إلى النقـــد الـــلاذع في حياتهـــا

---

[1] يبدو أن هذين البيتين ليسا لولادة فقد أخبرني شاعرنا الكبير الأستاذ بدوي الجبل أنهمـــا من الشعر القديم وأنها تمثلت بهما وغيّرت الشطر الأول من البيت الأول، وأصلهما:

بـــيضٌ غرائـــرُ مـــا هَمَمْـــنَ بريبـــةٍ كظبـــاءِ مكّـــةَ صـــيدُهُن حـــرام

واستثارت غيرة معاصراتها، ولا سيما أنها كانت بنت خليفة، لذا نجد إن كثيرين قد تجنوا عليها في حياتها وبعد موتها، وهذا أمر طبيعي يحدث في كل زمان ومكان لمن كانت مثل ولادة، ولمن عاشت في مثل ظرفها وبيئتها. الشباب في ولادة، والنزوع إلى السموّ في نفسها وفكرها، وحبّها للحياة والمجتمع، وولعها بالفن من شعر وموسيقى، والمكانة المرموقة التي كانت عليها، والحرية التي مكّنتها ظروفها من التمتّع بها كانت من العوامل التي عرّضتها لهجمات خصومها، وفي طليعتهم بعض المعجبين بها الطامعين بالخطوة لديها الذين اصطدموا بصدّها وإهمالها، وما كان أكثر هؤلاء في حياتها! كانت ولادة، ككل أنثى، مزهوّة بنفسها فوجدت في إعجاب الرجال بها ما سرّها وأرضى غرورها، وعندما استرسلت في انطلاقها وجدها بعضهم لعوباً تُغري الرجال وتُطمعهم بالتودّد إليها، خاصةً لأن لها أشعاراً ماجنة كالبيتين اللذين كتبتهما على عاتقي ثوبها تقول فيهما:

أنا واللهِ أَصلُح للمعالي

وأَمشي مشيَتي وأتيهُ تيها

أُمَكّـــنُ عاشـــق مـــن صَـــحْنِ خـــدّي

وأُعطـــي قـــبلتي مـــن يـــشتهيها

ولكن هذا القول الذي أُخذ عليها وأثار ضجيجاً كبيراً حولهـــا ولغطاءً كثيراً ليس إلا نزوة من نزوات الشباب، وقد علّق عليه نيكل بقوله: (نزوات ولادة لا تكاد تختلف عن النزعات التحررية لـــدى نجوم المسرح والسينما في يومنا هذا). كما شبّهها نيكل بجورج صاند في مغامراتها العاطفية ولكنه تجنى عليها لأن الفـــارق بـــين الأدبيـــة الفرنسية المغامرة جورج صاند وبين ولادة الشاعرة كبير جداً لأنهـــا عرفت الحب الصحيح مرة واحدة مذ عرفت ابن زيدون وأحبته، ولا ريب في أن مجون الأولى واستهتارها في حياتها الخاصة شـــيء، وأن اندفاع ولادة مع عاطفتها المشبوبة حيال ابن زيدون على الرغم من خفتها في مطلع صباها شيء آخر. كانت ولادة صادقة في حبـــها، عنيفة فيه، ذات كبرياء وأنفة، وهذا ما سبب لها الكثير من المتاعب، وقد يكون من الإنصاف أن أُشير هنا إلى ما لم أر أحداً من الباحثين أشار إليه من قبل وهو أن ولادة يوم طرّزت عاتقي ثوبهـــا بـــالبيتين

يومئذ إلى رغبة جامحة في التحدي، لعلها تُفسّر بالدلّ والغرور والتيه على الناس، أو بأنها لون من ألوان الإعراب الذي يرفضه كل مجتمع...

أما ولادة الشاعرة ففي وسعنا أن نقرر مستواها الأدبي استناداً إلى مصدرين اثنين: أولهما هذا الترر اليسير الذي حوته كتب الأدب من قصائدها التي وصلت إلينا، وثانيهما آراء النقاد والأدباء والمؤرخين فيها. إن ما وصل إلينا من آثارها الشعرية قليل ولكنه كافٍ للدلالة على مكانتها الأدبية الرفيعة لما في أشعارها من براعة في التعبير، وجزالة في اللفظ، وعاطفة قوية صادقة. غير أننا نجد في بعض ما نُسب إليها من أشعار إسفافاً وضعفاً يدعوان إلى الاستغراب، فإما أن تكون قصائد منحولة، وإما أن تكون مسايرةً لذوق العصر، أو كما قال الأديب الأستاذ عبد العزيز البشري في مراياهُ مفسِّراً إسفاف شوقي أحياناً: (ولا بُدّ للطائر المحلّق من أن يستريح هنيهة بالإسفاف). وبينما نحن في صدد الحديث عن قلة قصائد ولادة المحفوظة في كتب الأدب أودّ أن أُشير إلى مذهب أدبي معروف يقول أصحابه: "ليس المكثار هو الأديب الكبير أو الشاعر الكبير فقد تُخلّد

أما ابن زيدون فقد انحدر من أسرتين عريقتين في النسب هما أسرة بني مخزوم من جانب أبيه، وأسرة قيس عيلان من جانب أمه.

ولد في ضاحية الرصافة بالقرب من قرطبة سنة ١٠٠٧م (٣٩٤هـ) وكان أبوه فقيهاً رفيع القدر، واسع الثقافة غير أنه مات عنه وهو بعد طفل في الثانية عشرة، فتولى جده لأمه تربيته وتعليمه. كان جده أبو محمد بن إبراهيم بن سعيد القيسي من العلماء المرموقين، وقد وُلي القضاء في مدينة سالم Medinaceli قبل أن يتولى أحكام الشرطة في مدينة قرطبة، وفي مثل هذه البيئة الراقية التي درج فيها ابن زيدون كان طبيعياً أن يمهّد له طريق النبوغ وهو المطبوع على الشعر، لذا نشأ على الولع بالعلم، وتزوّد بصفات الرجولة والنزاهة منذ مطلع شبابه، فتألق نجمه بسرعة، واحتلّ منزلة رفيعة في عالم الأدب ثم في ميدان السياسة. ففي الأدب تسلّق قمة المجد وهو في مقتبل العمر وحافظ عليها حتى نهاية حياته لما امتازت به قصائده من قوة في البناء، وعمقٍ في الإلهام، وبراعةٍ في ضمّ الكلمة إلى الكلمة، والفكرة إلى الفكرة، وابتكار الصور الرائعة. ومن حسن

الأجيال، وما فتئ الباحثون من شرقيين وغربيين يتناولونها بالبحث والتحليل. وامتاز ابن زيدون كذلكم بأنه مزج حبه للطبيعة بحبه للمرأة فأبدع روائع خالدات ملأت الأسماع وملكت القلوب، ولعل أكبر ميزاته أنه تحلى بثقافة كبيرة في مختلف العلوم فانعكست على قصائده وزادتها قوة وقيمة، وهو الذي قال عن نفسه:

وَنَجَّذَني علمٌ توالت فنونهُ

كما يتوالى في النظامِ سخابُ

ونجذني أي حنّكني، والسخاب هو العقد، وكأنه يقول:

لقد أخذت بأطراف العلم كلها كما توالت حبات العقد النظيم.

أما في السياسة فلم ينل ابن زيدون حظاً وافراً متلائماً مع مناقبه وطموحه، لقد أسهم في أحداث عصره منذ مطلع شبابه فأضحى زعيماً شاباً يوجّه الرأي العام المتيقظ في مدينته، ثم قام بدور رئيسي في القضاء على الخلافة الأموية لدى انحطاطها، وشارك في تأسيس الحكم الجهوري الذي جاء بعدها بأن عمل وزيراً في حكومة أبي الحزم ابن جهور، لفترة جدّ قصيرة. كما كانت له صداقات كبيرة

وأبو حفص بن برد، وبنو عباد في إشبيلية الذين لجأ إليهم في هجريته من قرطبة ووجد لديهم كل تقدير وتكريم. ولكن الخصومات التي اعترضت سبيل ابن زيدون في حياته وحالت بينه وبين بلوغ مراميه كانت أشدّ تأثيراً من الصداقات التي نعم بها وتفيّأ بظلالها، فلقد أوقع خصومه وحساده بينه وبين ولادة من جهة، وأوقعوا بينه وبين حاكم قرطبة من جهة ثانية، وتمكنوا من اتهامه بالاختلاس زوراً وبهتاناً مما أدّى إلى زجّه في السجن حيث ذاق ألواناً من الظلم والعذاب عبّر عنها في قصائده الإنسانية الرائعة. أما الحب، حبه الكبير لولادة الأميرة الشاعرة فقد كان له أعمق الأثر في حياته وفي تلوين فنّه بنزعة وجدانية إنسانية قلما لمسناها عند غيره من شعراء الأندلس. يقول الأستاذ ليفي بروفنسال: (إن ابن زيدون هو المتغني بالحب الذي لا يُباري، وإن حبه لولادة أوحى إليه قصائد رائعة تمتاز بخلوّها من البريق المبالغ به، وبتنوّع معانيها وجدّتها، وبعذوبة موسيقاها). ويشاطر الأستاذ بروفنسال في هذا الرأي عالم كبير ومستعرب قدير هو الأستاذ اميليو غارثيا غوميت، وهو من المعجبين بابن زيدون ومن

الذين ترجموا بعض قائده للاسبانية فقد قال في بحثه عنه أن شعره قريب من الذوق الغربي لجزالة تعابيره وغياب الزخرف عنها.

عرفت ولادة ابن زيدون في فترة توليه منصب الوزارة يوم كانت كوكب المجتمع القرطبي وهي في أوج تألقها وشرخ شبابها، وكان ابن زيدون يومئذ شاباً دون الثلاثين. دعاه أصدقاؤه إلى ندوتها فاستقبلته أحسن استقبال، ووضعته في مكان الصدارة لما كان له من علوّ شأن في الأدب وفي السياسة. كان شاعرنا عزباً كما نفهم من رسالته الهزلية، وكان رجلاً وسيم الطلعة حلو الحديث، أنيقاً شجاعاً متدفق الحيوية، فأعجبت به ولادة إعجاباً كبيراً، وآثرته على سائر رواد ندوتها، أما هو فقد وجد فيها جمالاً صارخاً، وأنوثة جذابة، وتجسيداً للأدب الرفيع والفن الأصيل فأحبها حباً جماً ما برح أن عصف في قلبها الذي لم يكن قد رفّ لأحد قبله. والحق أن ولادة امتلأت إعجاباً به في بادئ الأمر، ثم تحوّل الإعجاب إلى ميل شديد ما لبث أن أصبح حباً كبيراً بل هوى جامحاً! وما هي إلا فترة وجيزة حتى أصبح الشاعران العاشقان حديثَ الناس مما جلب لهما الألم

في مقدمتهم منافساه في حبها الوزير أبو عامر ابن عبدوس، وأبو عبد الله ابن القلاس.

ذكرتُ فيما تقدم أن حبهما الكبير عَمَّرَ ثلاثين عاماً ولعل ما قوّى تلك العاطفة الجامحة بينهما وغذاها الحرمان الذي مُنيا به من جهة، ثم اتفاق صفاتهما الخلقية وميولهما الفنية من جهة ثانية. فالحرمان نشر ظلّه البغيض على صلتهما عبر السنين، وأما توافق الطباع والميول فلأن كلاهما كان شاعراً مفتوناً بالأدب والموسيقى والغناء وكلاهما كان عزيز النفس، قوي الشخصية، طموحاً، فضلاً عن تقاربهما في السن، فليس غريباً إذن أن تُعقد أواصر الحب بينهما، مع أن الحب لا يخضع لقاعدة وإنما يهبط على المتحابين أحياناً من غير أي سبب ظاهر، أو أي تجانس، كالغيث يهطل فجأة من سحابة بيضاء.

يبدو أن العاشقين المرموقين قد حرصا على التكتم والتصوّن لدى ولادة حبهما وهذا ما يبدو لنا جلياً في قول ابن زيدون:

أصونُكِ من لحظاتِ الظنونِ
وأُعليك من خطرات الفكَرْ،

وأَحْـــذَرُ مـــن لحظـــاتِ الرقيـــبِ

وقـــد يُـــستدامُ الهـــوى بالحَـــذَرْ

غير أن هذه العاطفة المشبوبة التي ربطت بين الشاعرين الوجيهين في المجتمع القرطبي ما لبثت أن عُرفت، وهل يَخفى الحب؟ رحم الله من قال:

فالـــصبُّ تفـــضحُهُ عيونُـــه

وَتَـــنِمُّ عـــن وَجْـــدٍ شـــؤونُه

زد على ذلك أن أشعار ابن زيدون الغزليـة الـتي أصـبح يُرسلها، القصيد تلو القصيد، انتشرت ودرجت على ألسنة النـاس، وأخذ يردّدها المعجبون والرواة. فلقد كان ابن زيدون، إذا مـا ألحّ عليه الشوق، يعبّر عنه بأبيات بليغة عذبة كتلك التي يقول فيها:

يـــا ليـــت مالَـــكَ عنـــدي

مـــن الهـــوى لِـــيَ عِنْـــدَك،

فطـــالَ ليلُـــك بعـــدي

سَـــــــلْني حيـــــــاتي أهِبْهَــــــــا
فَلَـــــــــسْتُ أمْلِـــــــــكُ رَدَّكْ
الـــــــــدهرُ عَبْـــــــــدِيَ لَمّـــــــا
أصْـــــبَحْتُ في الحُـــــبِ عَبْـــــدَك

وإذا ما برّح به الجوى، وألف السهاد، أخذ يخاطبها بقوله:

واهـــــاً لِعطْفِـــــكِ!! والزمــــانُ كأنَّمــــا
صُـــبِغَتْ غـــضَارَتُهُ بِبُـــرْدِ صَـــباكِ
أمـــا مُـــنى نَفْـــسي فَأَنْـــتِ جميعُهـــا
يـــا ليْـــتني أَصـــبَحْتُ بَعْـــضَ مُنـــاك
يــــدنو بِوَصِـــلْكِ حـــينَ شـــطَّ مـــزارُهُ
وَهُــــمٌ أكـــادُ بِـــهِ أُقَبِّـــلُ فـــاكِ

والحق أن من كان يسمع هذه القصائد كان يتعرّف من خلالهـــا على شخص الحبيبة لأن خصائص ولادة كانـــت بـــارزة للأعـــين

ولادة إلا الإنسان الذي يخفُقُ قلبُه بين جوانحه ويهفو إلى كل رقيق وجميل، وما كانت إلا الشاعرةُ المرهفةُ الحسّ التي تأثرت بعبقرية الشاعر الشاب الذي هام بها فاستجابت لنداء قلبها وكتبت إليه تقول:

تَرقَّبْ إذا جُنَّ الظَلامُ زِيارتي
فإني رَأَيْتُ اللَّيْلَ أكْتَمَ للسِرِّ،
وبي مِنْكَ ما لَوْ كان بالشَّمْسِ لَمْ تَلُحْ،
وبِالْبَدْرِ لَمْ يَطْلُعْ، وبِالنَجْمِ لَمْ يِسرِ!

وعلى الرغم من وسائل الحذر جميعاً، ذاع أمر عشقهما بين الناس حتى أن شاعرنا العاشق أخذ ينظم القصائد الغزلية بالعشرات، وبدون تكتّم، معبراً عن فخاره بحبه ومحبوبته، ومنها قوله:

يا مَنْ غَدَوْتُ بِهِ في الناس مُشْتَهِرا
قَلْبي عليكَ يُقاسي الهَمَّ والفِكَرا،
إن غبْتَ لم ألقَ إنساناً يُؤانِسُني،

غضبت ولادة من هذا الإعلان، واعتبرته أقربَ إلى التشهير منه إلى التمجيد، فاعتذر إليها ابن زيدون اعتذاراً ما أظن أن شاعراً جاء بمثله في شدة الحرص على احترام العاطفة، وفي حسن التعبير عن لواعج الهوى، فقد قال:

إِنَّ الزمانَ الذي عَهْدي بِهِ حَسَنٌ
قد حالَ مُذْ غابَ عني وَجْهُكِ الحَسَنُ

واللهِ ما ساءَني أني خفِيتُ ضنًى
بل ساءَني أَنَّ سِرِّي بالضَّنَى علَنٌ

لو كانَ أَمْرِيَ في كَتْمِ الهوى بِيَدي
ما كانَ يعلَمُ ما في قلبِيَ البَدَنُ

غير أن هذا الاعتذار لم يكن مقبولاً عند ولادة لأن خصوم الشاعر ومنافسيه استغلوا الفرصة السانحة أبشع استغلال فأوغروا صدرها عليه، ولمن يكفّوا عن إذكاء حفيظتها حتى بلغ استياؤها منه مبلغه، وجعلوها تنظر إليه بأعين جديدة : أخذت ترى فيه الصلف والغرور، والأنانية والعقوق، ولا سيما عندما مرّ بخاطرها نقله لشعرها ذات مرة وإعجابه

مستخفّ، ولمقامها غير مراع. و لهذا كله صدّت عنه صدوداً مفاجئاً عنيفاً لمن يكن له مستحقاً. وقصة إعجابه بجاريتها عُتبة قصة عابرة ضخّمها خيال ولادة وغضبُها، وذلك أن الوزير الشاعر طلب من عُتبة في ليلة أنسٍ وطرب أن تعيد غناء لحن أعجبه، وقد فاته أن يستأذن مولاتَها في الأمر، لذا احتدّت ولادة وانسحبت من المجلس بعد أن ضربت جاريتها عتْبة مؤنبةً... وفي هذا قال ابن زيدون:

وما ضربَتْ عُتبى لِذَنْبٍ أَتَتْ بِهِ
ولكنَّما ولادةٌ تشتهي ضَرْبي
فقامَتْ تَجُرُّ الذَّيْلَ عاثرةً بِهِ
وتْمسَحُ طَلَّ الدمْعِ بالعَنَم الرَّطْبِ

ولا ريب في أن ابن زيدون قد أخلّ بآداب المجلس وتجاوز حدود اللياقة عندما وضع نفسه موضع صاحبة البيت متخطياً وجودها، ثم إن هذه الحادثة بالذات تدلّ أبلغ دلالة على آداب السلوك التي كانت سائدة في المجتمع العربي آنذاك، وعلى ضرورة احترام الناس لها. أما عن ثورة ولادة يومئذ فلا شك في أن شدّة حرصها على أن يتقيّد

الثورة، لأن الدافع الثاني لها كان كبرياءها، فقد ساءها أن ترى حبيبها يتمادى مع جاريتها وينسى قواعد الأدب ولو بهذه البادرة البسيطة. ولا يخفى على أحد منا أن كبرياء الإنسان وكرامته هما أعزّ ما لديه، فإذا جُرحت كبرياؤه أو امتُهنت كرامته ثار وكاد يفقد حلمه. كما يجدر بالباحث ألا يستهين بعامل الغيرة الذي كان له أثر كبير في غضب ولادة، وقد أعربت عنه في لومٍ لا يخلو من القسوة والتجني إذ كتبت تقول له:

لو كُنتَ تُنصِفُ في الهوى ما بيننا
لَمْ تَهْوَ جَارِيَتي وَلِمْ تتخَيَّرِ
وَتَرَكْتَ غُصْناً مُثْمِرا بجمالِه
وَجَنَحْتَ للغُصْنِ الذي لَمْ يُثْمِرِ
ولقد علِمتَ بأنني بَدْرُ السِّما
لَكِنْ دُهيتَ، لِشَقْوَتي، بالمُشْتَري

تذكرت ولادة تلك الحادثة وحوادث غيرها يسيرة لا تخلو منها علاقة بين مُحبَّيْن فهي [illegible]

وصفعها في ثورة استيائه وغضبه، ولكنه ندم على ذلك أشدّ النـــدم، وحاول الاعتذار بشتى الوسائل، منها القصيدة التي يقول فيها:

إنْ تكُـــن نالَتْـــكِ بالـــضربِ يـــدي
وأصـــــابَتْكِ بمـــــا لَـــــمْ أُرِدِ
فلقـــد كنـــتُ، لَعَمْـــري، فاديـــاً
لَـــكِ بالمـــالِ وبعـــض الوَلَـــدِ
فَثِقِـــي مـــني بِعَهْـــدٍ ثابـــتٍ
وضـــمير خـــالِصِ المُعْتَقَـــدِ
ولـــئِنْ ســـاءَكِ يـــومٌ فـــاعْلَمي
وضـــمير خـــالِصِ المُعْتَقَـــدِ

ولكن ولادة لم تغفر لحبيبها تطاوله عليها بالضرب و لم تعـذره فكان غضبهما بداية فساد الصلة بينهما، وإن كـان التـراث الأدبي الأندلسي قد جنى منه بعضَ الخير... و لم يكتف الحسّاد والمفسدون بهذا القدر من الجفاء الذي حلّ بين العاشقين بل نشروا المطويّ مـن

جميعاً! عندئذ طوى شاعرنا جناحيه الكسيرين على جراحات قلبه وكان عالماً بالذين حاكوا له الوقيعة وألّبوا عليه حبيبته ونفّروها منه. ومع ذلك لم ينقطع عن نظم أرقّ القصائد وأجملها وإرسالها إليها، يعاتب فيها ويسترضي، ويعبّر بحرارة وصدق عن هيامه وإخلاصه وضناه. والحب، كما نعلم، يزداد قوةً إذا حالت الحوائل بين المحبَّيْنِ، وفرضت عليهما الحرمان، ولعل من أشجى قصائده في إثر الجفوة والهجر قوله لولادة:

أبديتِ لي من أفانينِ القِلى عِبَرا
أَرْسَلْتني في أحاديثِ الهوى مَثَلاً
لم تبقَ جارحةٌ بالهَجْرِ من جَسَدي
إلا خَلَعْتِ عليها بالضنَّى حُلَلا
فليُغْنِ كفَّك أني بعضُ من مَلَكَتْ

ولتَقْضِ ما شئتِ من هَجْرٍ ومـــن صِـــلَة

لا أَقْضِ مـــا عِـــشْتُ سُـــلواناً ولا مَلـــلاً

إن كـــان لي أمـــلٌ إلا رضَـــاكِ فـــلا

بُلِّغْتُ، يَا أَمَلـــي، مـــن دَهْـــرِيَ الأمـــلا!

وكان بُعده عنها واشتياقه إليها وراءَ آلامه، والـــدافعَ الرئيـــسي لشحذ قريحته. ثم اتّهمها بالغدر بعد أن طال البعاد، وتحجـــر قلبـــها وأضحى بالقياس إليه كالجماد، فقال لها:

أيوحِـــشُني الزمـــانُ وأنـــتِ أُنـــسي؟

ويُظلِـــمُ لِـــيَ النـــهارُ وأنْـــتِ شَمْـــسي؟

وأَغْـــــرِسُ في محبَتِـــــكِ الأَمـــــاني

فـــأجني المـــوتَ مـــن ثَمَـــرَاتِ غَرْســـي؟

لقـــد جازيْـــتِ غـــدراً عـــن وفـــائي

ولـــو أنَّ الزمـــانَ أطـــاعَ حُكمـــي

فـــديتُك، مـــن مكارِهِـــهِ، بنفـــسي!

وعندما علم الشاعر المتّيم بأن خصمه الوزير ابن عبدوس خطب ولادة لنفسه اغتاظ أيّما غيظ، وتألم أيّما ألم، ولكنه وجد متنفّساً لكربه واستيائه في تدبيج رسالة مطوّلة بعث بها إليه على لسان ولادة. عُرفت تلك الرسالة بالرسالة الهزلية وتجلّت فيها عبقرية ابن زيـدون وقدرته على التهكّم على حدّ سواء، وقد تُرجمت إلى لغات شـرقية وغربية كثيرة منها التركية والروسية والألمانية والانكليزية والاسبانية، كما نشرها ريسك Risk في مدينة ليبـسيج سـنة ١٧٥٥م مـع ترجمتها إلى اللغة اللاتينية. لقد حظيت الرسالة الهزلية باهتمام الأدباء والنقاد في الشرق والغرب لما تضمنت مـن براعـة في الـسخرية والوصف، وقدرة على التعظيم والتحقير، وثقافة واسـعة وخيـال وروعة بيان، أي لما احتوته من مزايا لم نقف على ما يدانيها في أثـر من آثار أدبنا الأندلسي النثرية.

قال ابن زيدون في مستهل رسالته مخاطباً خصمه ابن عبدوس بعد أن بلغه أنه أرسل مندوبة عنه إلى ولادة لتزكيّه لديها وتطلب موافقتها على الزواج منه، (والرسالة قد وُجهت لابن عبدوس على لسان ولادة دون علمها بذلك كما ذكرنا آنفاً) قال فيها: (أما بعدُ أيها المصابُ بعقله، المورَّطُ بجهله، البَيِّنُ سقطُه، العاثرُ في ذيل اغتراره، الأعمى في شمس نهاره، المتهافتُ تهافت الفَراش على الشِهاب...) إلى أن يقول له:

(فإنها "ويعني المرأة التي فوّضها بطلب يد ولادة" أَعْذَرتْ في السفارة لك، وما قصّرت في النيابة عنك زاعمة أن المروءةَ لفظٌ أنت معناه، قاطعةً أنك انفردتَ بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت، وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك، وحاتماً إنما جاد بوفرك ولقي الأضيافَ ببشرك، وإياسَ ابنَ معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك، وسَحبان إنما تكلم بلسانك، وإن الحجاج تقلّد ولاية العراق بِجَدِّك، وأن هومس أعطى بلينوس ما أخذ عنك، وافلاطون أورد على

حسّك، وإن صناعة الألحان اختراعُك، وأنك، لو شئت، أحلت البحار عذبة، وأنك المقولُ فيه:

ليسَ على الله بمستنكرٍ

أن يَجْمَعَ العالَم في واحد!

وبعد أن فخّمه وروى غليلَه منه تهكُماً وسخرية أخذ يصوّره على حقيقته ويبالغ في تحقيره وتصغيره، فجعله قزماً تافهاً، وخفضه إلى أسفل درك بعد أن رفعه إلى أعلى القمم، كل ذلك بأسلوب كاريكاتوري بارع، ثم قال له في جملة ما قال:

(إنك كالمعيديّ تسمَعُ به خيرٌ من أن تراه، هجينُ القذال، مفرِطُ الحُمْق والغباوة، جافي الطبع، بغيضُ الهيئة، كلامُك تمتمة، وحديثُك غمغمة، ودينُك زندقة، فوجودك عدم، والخيبة منك ظفر، والجنة معك سقر، فكيف رأيتَ لؤمَك لكرمي كفاءً، وضعتَكَ لشرفي وفاءً، وهلا علمت أن الخبيث والطيب لا يستويان؟ وأني عِلْق لا يباع لمن زاد، وهدف لا يُصيبه إلا من أجاد؟).

إلى أن يقول له متشفياً، بلسان ولادة طبعاً وبدون علمها:

(ما كنتُ لأتخطّى المِسْكَ إلى الرماد، ولا لأمتطي الثور بعد الجواد، ولعلك إنما غرّك من عَلِمْتَ صبوتي إليه من أقمارِ العصر، ورياحين المِصْر، فإن بادرت بالندامة ورجعت على نفسك بالملامة كنتَ قد اشتريت العافية لك بالعافية منك).

نجحت الرسالة الهزلية في بلوغ هدفها المنشودِ لأنها سرعان ما ذاعت بين الناس ووضعت ابن عبدوس موضعَ التفكّه والتندّر مما أرغمه على الانقطاع عن زيارة ولادة ودفعه إلى تحاشي الظهور بين الناس. ولكن ابن زيدون دفع ثمنها غالياً لأن خصمه انصرف إلى إعداد مؤامرة شنيعة للإطاحة به بكل ما يحمل من مكرٍ وحقدٍ، ثأراً لكرامته، وانتقاماً لجرحه، وطمعاً في أن يصفو له الجوّ في كسبِ مودةِ الأميرة ولادة. أعدّ ابن عبدوس مخطط مؤامرته ووضعه في حيّزِ التنفيذ فأفلح في تلفيق تهمة دنيئة ألصقها به إذ اتهمه باغتصاب عقار في قرطبة، ثم حمل الحاكم ابن جهور على تصديقها وبالتالي على إصدار الأمر بتوقيفه ومحاكمته، فتمت محاكمته خلافاً للأصول المتبعة آنذاك، أي من غير أن تُترك له الفرصة للدفاع عن نفسه، وزُجّ في السجن

القاضي الذي كُلّف النظر في تلك القضية الغامضة قد عُيّن خصيصاً من أجل الحكم بها و لم يكن معروفاً ولا جديراً بالمهمة التي أوكلت إليه حسب رأي ابن بشكوال وابن حيان، كما أن المدعى عليه ابن زيدون قدّم وثيقة خطية تبرّؤه ولكن القاضي لم يأخذها بعين الاعتبار خلافاً للأصول والأحكام المرعية آنذاك في الأندلس.

قضى ابن زيدون في سجنه ما يقرب من عامين لم ينقطع خلالهما عن كتابة الروائع النثرية والشعرية سواء في معاتبة أصدقائه، أو في مناجاة حبيبته وبثّ لواعجه. لقد احتجّ على الظلم الذي لحق به أكثر من مرة إلى حاكم قرطبة وبعض أصدقائه النافذين غير أنه لم يلق أذناً صاغية لاحتجاجه وشكواه، ومن أرق ما بعث به للأمير أبي حزم ابن جهور معاتباً ومدافعاً عن نفسه وقوله:

أفي العدلِ أَن وافتْكَ تَتْرى رسائلي

فلمن تَتَّرِك وضعاً لها في يَدَيْ عَدْلِ

أَئِن زعمَ الواشون ما ليسَ مَزْعَماً

ومِثليَ قــد تهفــو بــه نــشوةُ الــصِبَا

ومثلُك من يعفو، ومــا لَــكَ مــن مِثــلِ

وإني لتنــــهاني نُهــــايَ عــــنِ الــــتي

أشــادَ بهــا الواشــي، ويَعْقِلُــني عقلــي

ولعل من أروع القصائد التي نظمها في السجن سينيته المشهورة التي وجهها إلى صديقه الوزير أبي حفص بن برد فلقد ضمّنها فلسفته في الحياة فجاءت دليلاً على خبرته الكبيرة بالنفس الإنسانية، على الرغم من صغر سنه يومئذ لأنه كان في العقد الثالث من عمره، وفيها يقول:

مــا علــى ظنِّــي بــاسُ يجــرحُ الــدهرُ ويأســو

ربمــا أشــرفِ بالَمــرْ ءِ علــى الآمــالِ يــأسُ

والمحــاذيرُ ســهامٌ والمقــاديرُ قيــاسُ

ولكــم أجــدى قعــودٌ ولكــم أكــدى التمــاسُ

أَذْؤُبٌ هامـــــت بلحمـــــي فانتـــــهاشٌ وانتـــــهاسُ
كلـــهم يـــسأل عـــن حـــا لِي وللـــــذئْبِ اعتـــــساسُ
إن قـــسا الـــدهرُ فللمـــا ءِ مـــن الـــصَخْرِ انبجـــاسُ
ولـــئن أمـــسيتُ مَحْبـــو ســـاً فللغيـــثِ احتبـــاسُ
فتأمّـــل كيـــف يغـــشَى مُقْلَـــةَ المجـــدِ النُعَـــاسُ
ويُفـــتُّ المِـــسْكِ في التُـــرْ بِ فيوطـــأ وَيُـــداسُ!

إن ديوان ابن زيدون طافح بالقصائد الإنسانية والعاطفية الرائعة يحار القارئ في التمييز بينها غير أنه يتأثر بصدق لهجتها جميعاً، وبعمق المشاعر التي أملتها، ويُعجب بقدرة الشاعر على فهم نوازع النفس البشرية وعلى التعبير البليغ عن هذا الفهم. لقّبه الرواة ببحتري الأندلس لرقة جرس قصائده ولما في بعضها من التنغيم الموسيقي كقوله لولادة معاتباً:

يـــا قاطعـــاً حَبْـــلَ وُدّي وواصـــلاً حَبْـــلَ صَـــدّي
لـــو كـــانَ عِنْـــدَكَ مـــني مثلُ الـــذي مِنْـــكَ عِنْـــدي

لا أحسب أبداً أن ولادة استطاعت أن تتحرر من حبها لابن زيدون بعد القطيعة على الرغم من صدودها عنه، ومن هجائها له في أثر سعايات المفسدين، والدليلُ على استمرارها في رعاية هذا الحب العظيم الأبيات التالية التي أنشدتها إعراباً عن شدة شوقها للحبيب وحنينها إليه بعد الفراق والتجافي:

ألا هل لنا بَعْدَ هذا التفرُّق
سبيلٌ فيشكو كلُّ صبٍّ بما لقي؟
وقد كنتُ أيامَ التزاوُرِ في الشتا
أَبيتُ على جَمْرٍ من الشوقِ مُحْرِقِ
فكيفَ وقد أمسَيْتُ في دارِ قطعةٍ
لقد عَجَّلَ المقدّرُ ما كُنْتُ أتّقي
تُمرُّ الليالي لا أرى البَيْنَ ينقضي،
ولا الصَبْرَ، من رِقِ التشوُّقِ، مُعتقي!

ولا شك في أن الرسالة الهزلية التي بعث بها ابن زيدون إلى خصمه

الصِلَةَ الواهية بينها وبين ابن عبدوس، وأرجعتها إلى سبيل الرشاد إذ أدركت الفارق الكبير بين الوزيرين اللذين أحباها. ولا ريب أبداً في أنها ميّزت بين نبل ابن زيدون وعبقريته، ووفائه لها وهيامه بها، وبين ادعاء ابن عبدوس وجبنه وتفاهته، ولا سيما بعد أن ثبت لديها أنه كان متآمراً ومُغرضاً حتى في عواطفه. أما إذا تساءلنا عن الأسباب التي حالت دون ارتباط مصير العاشقين بالزواج، والأسباب التي أدّت إلى نشوب النزاع بينهما ومهّدت السبيل أمام الحساد والمفسدين للتفريق بينهما، فلا نجد تعليلاً أكثر إقناعاً من أن كليهما كان طاغي الشخصية، حادّ الطبع، أبيّ النفس، شديدَ الكبرياء، وهذه صفات تجعل من صاحبيها متوازيين غيرَ متكاملين، والمتوازيان كما نعلم قد يتماثلان ولكنهما لا يلتقيان! وبصورة أوضح أرى أن كلاً منهما كان يشبه نسراً جميلاً، طموحاً، قوياً، وأنهما التقيا وتوافقا في الصفات والميول والمزاج فحلّقا معاً، غير أن تحليقهما جنباً إلى جنب قد عرّض أجنحتهما للتصادم أكثر من مرة فإن من يلاحظ أسراب النسور تحلق في الفضاء يرى كيف يحترم كل نسر المسافة التي تفصله

فولادة عالم قائم بذاته، موهبتها الشعرية وجمالها الأخاذ، وظرفها واعتدادها بنفسها، صفات ملازمة لوجودها، وكذلك ابن زيدون الذي كان من أجمل شباب قرطبة وأشجعهم وألمعهم، وقد نشأ على الأنفة والفخار، وشاب على ثقته بنفسه وبمواهبه لهذا كله كان كل واحد منهما مستقلّ الشخصية وكبير العنفوان، وغير مستعدّ للتضحية بحريته من أجل الآخر، أو قابلاً للتنازل عن شيء في سبيله... يضاف إلى هذا كله أن المزاج الحارّ والعنجهية سيطرا على طبع كل واحد منهما، وأن شدة الغيرة رافقت حبهما الكبير مما جعل الخلاف ينشب بينهما المرة تلْوَ المرة، ويتخذ شكلاً درامياً. كلاهما كان غيوراً على صاحبه ولكن غيرة ولادة كانت أكثر عنفاً من غَيْرة ابن زيدون وهي التي أنشدت تقول لحبيبها صراحةً وبلا حرج:

أغارُ عليكَ من عَيْني ومِني

ومِنْكَ ومِنْ زمانِكَ والمكانِ،

ولو أني خَبَأْتُكَ في عيوني

إلى يوم القيامة، ما كفاني

طالت أيام ابن زيدون وليالية الموحشة في غياهب السجن، وفقد الأمل بعفو الأمير الحاكم إذ بقيت قصائده ورسائله العديدة، ومنها رسالته الجدية المشهورة، دون جواب... ففكر بالهرب ووُفّق إليه بمساعدة ابن الحاكم صديقه الذي كان ولياً للعهد، فهرب من السجن والتجأ إلى إشبيلية حيث لقي من المعتضد أميرها أحسن تكريم ومن اشبيلية أرسل إلى الحبيبة ولادة قصيدته الخالدة التي مطلعها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا

ونابَ عن طيبِ لُقيانا تجافينا

من مُبْلِغُ المُلْبِسينا بانْتِزَاحِهِمُ

حُزناً مع الدهر لا يَبْلى ويُبلينا

إن الزمانَ الذي ما زالَ يُضحكنا

أنساً بقربِهِمُ قد عادَ يُبكينا

غيظَ العدا من تساقينا الهوى فدعَوْا

فانحـــلَّ مـــا كـــان معقـــوداً بأَنْفُـــسِنا

وأنْبَـــتَّ مـــا كـــان موصـــولا بأيـــدينا،

وقـــد نكـــونُ، ومـــا يُخْـــشَى تفرُّقُنـــا

فـــاليومُ نحـــنُ، ومـــا يُرجـــى تلاقينـــا

ثم يقول الشاعر المتيّم الوفيّ:

لِيُسْقَ عهـــدكُمُ عهـــدُ الـــسرورِ فمـــا

كنـــــتُم لأرواحِنـــــا إلا رياحينـــــا

لا تحـــسَبوا نـــأيكُمْ عنـــا يُغَيِّرُنـــا

إن طالمـــا غيّـــرَ النـــأيُ المُحِبِّينـــا

واللهِ مـــا طلَبـــتْ أهواءُنـــا بـــدلاً

ولا اتخـــذنا خلـــيلاً عَنْـــكِ يَـــشْغَلُنا

ولا وَجَـــدْنا بـــديلاً مِنْـــكِ يُـــسْلينا.

وضع المستشرقون هذه القصيدة في مصافِ روائع الشعر العـــالمي واهتموا بترجمتها، ووجدوها قريبةً من الذوق الغربي لسلاسة سبكها، وخلّوها من الزخرف اللغوي مع تنوّع معانيها. يقول الأستاذ اميليو غارثيا غوميث معلقاً على أحد أبيات هذه القصيدة وهو:

حالـــت لبيـــنِكُم أيامُنـــا فغـــدَتْ

ســـوداً، وكانـــت بكُـــمْ بيـــضاً ليالينـــا

(يخيّل إليكَ وانت تُمعن النظر فيه، أن ابن زيدون جـــالس أمـــام رقعة شطرنج يتصرّف بتحريك حجارتها البيض والـــسود، وكأنـــه يخوض شوطاً يائساً حيال حبّه العظيم). ولا أغالي إذ أقول: لـــو لم ينظم شاعرنا في حب ولادة غير تلك الرائعة لاعترف له الشعر العربي بالتفوّق الفني إلهاماً ولغةٍ وسبكاً، وأنزله منزلة كبار شعراء العربيـــة، فإن تلك القصيدة آية من آيات البيان الشعرى لما تضمنّت من معان

وعفوية في التعبير. وما أحسب أنه وُجد شاعر عبّر عن الحب الذي يسمو بصاحبه كما فعل ابن زيدون حين قال في القصيدة ذاتها:

ما ضـــرَّ إنْ لم نكُـــن أكفـــاءَهُ شَـــرَفاً

وفي المَـــــودَّةِ كـــــافٍ مـــــن تكافينـــــا

قال القدماءُ المعجبون برائعة ابن زيدون هذه معبرين عن افتتـــانهم بها: (إن من لَبِسَ البياض، وَتَخَتّمَ بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو، وتفقّـــه للشافعي، وروى قصيدة ابن زيدون فقد استكمل الظرف كله). كما سارت الأساطير حولها في العصور الماضية حتى قيل: (مـــا حفظهـــا إنسان إلا مات غريبا!).

وفي إشبيلية وجد شاعرنا المهاجر أجمل تكـــريم مـــن صـــاحبها ووجهائها ولكن شوقه لرؤية الحبيبة، وأمله في صفحها عنه كانا غاية مناه على الرغم من هالة المجد التي طوّقت شخصه في تلك المدينة. لقد دفعه الوجد إلى المخاطرة بحياته إذ رجع من إشـــبيلية إلى ضـــاحية الزهراء بالقرب من قرطبة متخفّياً طمعاً بصفحها ورؤيتها، وكتب لها

إني ذكرتُـــكِ بـــالزهراءِ مـــشتاقا

والأفقُ طلــقٌ ووجــهُ الأرضِ قــد راقــا

وللنـــسيمِ اعـــتلالٌ في أصـــائلِه

كأنمـــا رقَّ لي فاعتـــلَّ إشـــفاقا

والروضُ عــن مائِــهِ الفِــضِّيِّ مبتــسمٌ

كَمَــا شَــقَقْتَ عــن اللَّبــاتِ أطواقــاً

يــومٌ كأيــامِ لــذَاتٍ لنــا انــصرمت

بتنــا لهــا، حــينَ نــامَ الــدهرُ، سُــرّاقا

كــأنّ أعينَــهُ إذ عايَنْــتْ أرَقَــي

بَكَــتْ لِمــا بي فجــالَ الــدمعُ رقراقــا

انتظر ابن زيدون في مخبئه رؤية ولادة دون جدوى فرجــع خائبــاً إلى إشبيلية مرّ في طريقه بمدينة بطليوس حيث أقام مدة مــن الــزمن يلملــم

يا دمعُ صُــــبْ مــا شــئْتَ أن تــصوبا

ويـــا فُـــؤادي آنَ لَـــكَ أن تـــذوبا

قـــد مـــلأَ الـــشوقُ الحـــشا نُـــدوبا

في الغَـــرْبِ إذ رُحْـــتُ بِـــهِ غريبـــا

إن قُـــرَّتِ العـــينُ بِـــأَن أَؤوبـــا

لم آلُ أن أسترضِـــــــيَ الغـــــــضوبا

حَـــــسْبِيَ أن أُحـــــرِّمَ المغيبـــــا

قـــــد ينفَـــــعُ المُـــــذْنِبَ أن يتوبـــــا

وقد طالعه في بطليوس العيدان، عيدُ الفطر وعيـــد الأضـــحى، فهاجته الذكريات وأرسل يقول:

خليلـــيَّ لا فِطـــرٌ يَـــسُرُّ ولا أضـــحى

فما حالُ من أَمْسى مشوقاً كما أضـــحى؟

ثم عادَ شاعرنا إلى اشبيلية حزيناً، كسيرَ القلب، ولعل من أشجى ما أنشد في حنينه إلى قرطبة، وفي شوقه إلى من خلّف فيها من أحبّةٍ وأهلٍ قوله:

هــل تــذكرونَ غريبــاً عــادَهُ شــجنٌ

مِنْ ذِكْــرِكُمْ وجفــا أجفانَــهُ الوسَــنُ؟

يُخفــي لواعِجَــه والــشوقُ يفــضحُهُ

فقــد تــساوى لدَيْــهِ الــسرُّ والعَلَــنُ

وأرَّقَ العَــيْنَ والظلمــاءُ عاكفــةٌ

ورقــاءُ قــد شــفَّها إذ شــفّني الحَــزَنُّ

فبِتُّ أشــكو وتــشكو فَــوْقَ أَيْكَتِهــا

وبــاتَ يهفــو ارتياحــاً بيننــا الغُــصُنُ.

وعندما تُوفي أمير قرطبة أبو الحزم ابن جهور خلفه ابنه أبو الوليد،

فيها، أما الصلةُ بينه وبين ولادة فيبدو أنها لم ترجع إلى سابق عهدها من الودّ إلا بعد فترة طويلة انحسرت خلالها بعض الغيوم كلّها... كانت عودةُ ولادة إلى ابن زيدون أقربَ إلى الصداقة والمودّة منها إلى الحب الحرام، أما عودة ابن زيدون إلى ولادة فقد كانت عودة العاشق إلى معشوقه بعد طول فراق وحرمان، وظلّ حبه لها وشغفه بها يترددان في ألحان شعره حتى نهاية حياته. كان ابن زيدون مثالاً للمغرم الوفيّ المتيّم بينما كانت ولادة مثالاً صادقاً للأنثى النفور، الشديدة الحساسة، إذ كان كلما ازداد بها هياماً وتعلّقاً ازدادت هي دلالاً وتيهاً، وقد عبّر لنا عن هذه الحال بقوله:

ما صَحَّ وُدّي إلا اعتلَّ وُدُّك لي

ولا أطعتُك إلا ازددتِ عِصْياناً

ليت الأمر انتهى بالعاشقين إلى هذا الحدّ من الحرمان والعذاب، فالأقدار لم تكن بهما رحيمة أبداً لأنها فرّقت بينهما من جديد يوم اضطُر الشاعر السفير إلى الهجرة ثانية لإشبيلية سنة ١٠٥١م

يقوم بمهام منصبه سفيراً شخصياً لأمير قرطبة خير قيام، وكان أمراء الطوائف وملوكهم يستبطئونه في ولاياتهم وقصورهم إعجاباً بمواهبه وطمعاً بحلاوة عشرته، فهبّ خصومه في قرطبة للتآمر عليه من جديد، وبالغوا بالوشاية عليه لدى الأمير حتى تمكنوا من حمله على الاعتقاد بأنه يخونهُ ولا يأتمر بأوامره. لقد حدث التآمر يوم أطال شاعرنا المقام في ملقه، في بلاط إدريس ابن يحيى(ابن علي ابن محمود)، فعزله الحاكم الجديد من منصبه ظلماً متنكّراً للصداقة القديمة المتينة التي تربطه به، وبهذا بلغ أعداء الشاعر أربهم بإقصائه عن قرطبة وعن حبيبته وعن منصبه الرفيع. صحيح أن ابن زيدون قد حُرم للمرة الثانية من العيش بالقرب من ولادة، ومن مركزه المرموق في قرطبة، ولكن الأقدار ساقت إليه في إشبيلية من يرفع الظلامة عنه، ومن يعوّض عليه خسارته إذ طوى في ظلال المعتضد بالله، صاحب اشبيلية وأعمالها، عشرين عاماً خلال هجرتيه الأولى والثانية، وكانت الأحداث قد صقلته إبان هجرته الثانية، والتجارب قد حنّكته فأوكل إليه المعتضد أرفع المناصب بأن جعله وزيراً ومستشاراً شخصياً له، ثم

وَلِيَ ابنهُ المعتمد على الله محمد الحكْمَ بعده، وكانت بينه وبين ابن زيدون أوثقَ صلاتِ المودة والوفاء إذ كان قد تتلمذ على شاعرنا وهو وليٌّ للعهد وتدرّب عليه في صياغة الشعر، وقد جرت بينه وبين ابن زيدون مطارحات ومساجلات طريفة وممتعة. كان المعتمد آخر سلاطين بني عباد في اشبيلية فاتخذ ابن زيدون وزيراً، ووسّع ملكه في غربي اسبانيا وجنوبها، كما أنه استطاع أن يفتح قرطبة بمعونة وزيره بعد أن جهّز لهذا الغرض جيشاً قوياً قاده ابن زيدون بالذات. وهكذا عاد شاعرنا إلى موطنه قرير العين، وما كاد يستقرّ فيها بين أهله وعشيرته حتى ثارت الفتنة في اشبيلية، فكلفه المعتمد بالعمل على إحباطها لما يتمتع بها من كياسة وحُسْنْ تدبير. كان لا بد لابن زيدون من الاستجابة إلى نداء المعتمد على الرغم من اعتلال صحته وقتئذ، فما كاد يتمّ مهمته حتى ألحّت عليه العلة وتوفي في رجب سنة ٤٦٣هـ (١٠٧٠م). ولما وصل نعيه إلى قرطبة جاشت نفوس أهلها حزناً عليه، وأما ولادة فقد توفيت سنة (١٠٨٧م) أي بعد وفاة حبيبها بسبعة عشر عاماً قضتها في غمرة آلام الحزن والوحدة.

مات ابن زيدون ولكنه بقي علماً خالداً من أعلام الشعر العربي والأدب الأندلسي، ويُعتبر ديوانه سجلاً أميناً لسيرته وآثاره على مرّ العصور ومن أنفس روائع تراثنا الفني. لقد أولع المستشرقون بدراسته، ووازنوه ببعض شعرائهم مثل بلوتارك وأوفيد، وترجموا بعضهم آثاره إلى مختلف اللغات الأوروبية. نشر بستورن الرسالة الجدية مع ترجمة لاتينية لها في كوبنهاجن سنة ١٨٨٩م. وكانت الرسالة الهزلية قد تُرجمت من قبل كما ذكرت آنفاً، كما نقلَ طائفةً من شعره إلى اللغات الانكليزية والفرنسية والاسبانية كبارُ المستعربين أمثال نيكل، وكور، وهنري بيريث، واميليو غارثيا، غوميث، وبيدرو رودريغث.

أما ولادة فإنه من المؤسف حقاً أن تضيع معظم آثارها لأن ضياعها حرمنا من دراسة أدبها وسيرتها بعمق ودقة أكثر مما استطعنا أن نفعل فيما لو وصل إلينا ديوانها كاملاً.

لست أولَ من بحث عن ولادة وابن زيدون، ولست آخر من سيتحدث عنهما أو يكتُبُ عن حبهما الكبير وتاريخ عصرهما الذهبي، فلقد وجد القصاص والمسرحيون فيهما مادة خصبة نسجوا

دراستُهما معيناً ثرّا ينهل منه كلُّ معجب بالروائع من قصص الحب وروائع الفن، كما أصبحت قصة عشقهما أسطورة من الأساطير إذ وجد فيها الكتاب والقراء ما يرضي أذواقهم، ويُشبع فضولهم، ويغذّي خيالهم، لهذا أقول إنها ستبقى مصدر وحي وإلهام ما دامت الأفئدة تخفق بالحب، والنفوسُ تهفو إلى الجمال وتهيم بالشعر، وما دامت أذواق الناس تبحث عن الأساطير وتترع إلى الملاحم.

وإذا كنا قد استمتعنا في هذه الأمسية بإنشاد نماذج من الأدب الإنساني انطلقت على لسان شاعرين عظيمين فإني أَرُدُّ الفضلَ إلى أرض الأندلس الطيبة التي أنجبتهما وعاشا عليها فأوحت إليهما ما أوحت، وفجّرت من مكنون عبقريتهما بلغة العرب ما فجّرت. ولو لم يكن في ماضينا المشترك إلا هذا الثمر الذكي الذي ينبغي أن نفخر به معاً لكان وحده كفيلاً أن يُقيم اليوم، وفي عقلية اليوم، أوثق صلة بين أمتين لم يبق بينهما إلا الحب والصداقة، إلا الإعجاب والاعتزاز بهذا التراث الخالد الذي اشتركنا بتقديمه للإنسانية عرباً واسبانيين.

ودّع ابن زيدون حبيبته ذات يوم وداعاً شجياً رافقته الزفرات وما

وَدَّعَ الـــــصَّبْرَ مُحِـــــبٌ ودَعـــــك

ذائـــعٌ مـــن سِـــرِّهِ مـــا اســـتوْدَعَكْ

يقـــرَعُ الـــسِنّ علـــى لأن لم يَكُـــنْ

زادَ في تِلْـــكَ الخُطـــى إذ ودّعَـــكْ

يـــا أَخـــا البَـــدْرِ ســـنَاءاً وســـنَا

حِفـــــظَ اللهُ زمانـــــاً أطْلَعَـــــكْ

إن يَطُـــلْ بَعـــدكَ ليلـــي فَلَكَـــمْ

بـــتُّ أَشْـــكو قِـــصَرَ الليـــلِ مَعَـــكْ.

ويطيب لي أن اختم محاضرتي كما بدأتها بالشكر العميق للـــذين هيّأوا لي فرصة سعيدة من فرص الحياة، لقيت فيها هـــذه الوجـــوه الكريمة، وبما أني عاجزة عن وداعكم بلغة ابن زيدون اسمحـــوا لي أن أعبّر عن مشاعري الودّية نحوكم بكلماتي البسيطة وأن أكرّر قـــولي

أثرنا في إسبانيا

محاضرة ألقيت

في

قاعة «المنتدى الاجتماعي»

بدمشق ١٩٦٧/١١/٥م

أثرنا في إسبانيا

«ونحن اليوم إذ نتحدث عن آثارنا في اسبانيا، العمرانية منها والفكرية نذهل أمام جلالها وعمقها، ونفاجأ بتدفق الذكريات فنتألم، ولكن الألم مفيد في حياة الأمم والأفراد لأنه يعرّفنا بالواقع، ويقربنا من المنطق، فيزيل من نفوسنا كل أثر للأوهام، ويشحذ الفكر ويسمو بالنفس».

الحديث عن اسبانيا أيها السيدات والسادة حديث عذب ولكنه ذو شجون يهزّ العرب جميعاً، ويهزّنا نحن السوريين بصورة خاصة. فاسبانيا اسم جميل لبلد جميل، في أندلسها وُلدت حضارة أصيلة، عربية السمات، قامت على سواعد أجدادنا بني أمية فكيف لا يهزنا الحنين، وكيف لا يستولي علينا الشجن عندما نقف على آثار أسلافنا العظيمة في أرض الأندلس، وكيف لا تهفو قلوبنا إلى زيارتها، وتقصّي أخبارها، ودراسة تاريخها، وقد كانت خلال ثمانية قرون خير مسرح تألقت فيه أمجادنا، وأرحب مهد ترعرعت فيه الفنون الإسلامية والعلوم الإنسانية التي شعّت على العالم منذ القرن الثامن الميلادي أيام أنارت بلاد أوروبا الغارقة في الظلمات يومئذ.

لقد قال المؤرخ الإسباني المعاصر (روخيليو بيريس أوليفاريس Rogelio Perez Olivares) : "إن قرطبة هي المسجد"، واسمحوا لي بأن أقول: إن اسبانيا هي الأندلس. لقد كانت كلّ بقعة من أرض الأندلس، وكل مدينة فيها داخلية أو ساحلية ميداناً لأحداث هامة تأثر بها تاريخ العالم القديم، وأحلّها في مكان الصدارة

وفق ٩٢هـ) بعد أن دخلها بعده بلج بن بشر قائد الفرسان الشاميين في الجيش الذي سيّره الخليفة هشام بن عبد الملك لفتح إفريقياوالأندلس ونحن إذ نذكر جبل طارق، والأندلس والخلافة الأموية في قرطبة نذكر دمشق الأموية، نذكر خليفتها معاوية ومن ولي بعده كعبد الملك بن مروان وهشام، فنذكر أعظم مرحلة من تاريخنا وأنصع الصفحات من أمجادنا وأجلّ المقومات لحضارتنا، نذكر باعتزاز وفخار ما كنا عليه من سؤدد في السيادة والحكم، وتفوّق في الفن والعلم، يوم كانت دول الغرب متخلفة ودول أميريكا بشطريها في ظهر الغيب. كما أننا نذكر كذلك بحسرة وألم ما آلت إليه أمورنا في هذا العصر المتفجر علماً وفناً، عصر السبق العلمي والتفجّر النووي الذي سبقتنا فيه أمم كثيرة، قديمة وحديثة. ونحن اليوم إذ نتحدث عن آثارنا في اسبانيا العمرانية منها والفكرية، نذهل أمام جلالها وعمقها، ونفاجأ بتدفق الذكريات فنتألم، ولكن الألم مفيد في حياة الأمم والأفراد لأنه يعرّفنا بالواقع، ويقربنا من المنطق، فيزيل من نفوسنا كلّ أثر للأوهام، ويشحذ الفكر ويسمو بالنفس.

تجلّت عبقرية الفكر العربي في الأندلس في أكثر من ميدان لغزارتها وشمولها وعمقها، تجلّت في العلوم والفنون، في الأدب والموسيقى والرسم، في الرياضيات والطب والفلك والفيزياء، وتجلّت كذلك في فن البناء فشيّدت المدن والقلاع والحصون والمساجد والقصور ومراكز الاصطياف، كما أنها أثبتت مهارتها في فن الحكم والسياسة، وتخطّت جميع هذه الميادين فاشتملت على أحدث وسائل الزراعة والريّ وأنجحها، فاخضرّت في الأندلس السهول والقفار، وأزهرت فيها البساتين والهضاب إذ نقل أسلافنا إليها أشجاراً من الشرق العربي كالزيتون والليمون والنارنج والرمان ونباتات كالزعفران، وأزهاراً كالياسمين والريحان والخزامى، ولم تزل أسماؤها جميعاً عربية في لغة الإسبان حتى يومنا هذا، وإن كان قد أصابها بعض التحريف، أما التجارة فقد نمت في عهد الخلافة الأموية في الأندلس وجعلت من اسبانيا سوقاً هامة لبضائع الشرق وتوابله، وهمزة الوصل بينه وبين الغرب، وأما الصناعة فلقد ازدهرت كذلك، ولا سيما صناعة القطن والحرير وحياكة الأقمشة المزركشة، وصناعة السيوف ومختلف أنواع الأسلحة التي كانت تصدّر من اسبانيا إلى كل من افريقيا والشرق

واليوم، بعد أن انقضت قرون خمسة تقريباً على خروج العرب من اسبانيا، اندثرت خلالها بعض الآثار الإسلامية العمرانية وسلم حمداً لله معظمها، نرى أن هذه السنوات الطويلة قد أسهمت في تصفية الجوّ بين العرب والاسبان، وفي إزالة رواسب الفتح العربي الإسلامي وكل أثر للتعصب، إذ أخذ المؤرخون الإسبان يبحثون وينقبون عن التراث العربي والحضارة الإسلامية في بلادهم باهتمام بالغ منذ منتصف القرن الحاضر. إن من يراقب عنايتهم بدراسة تاريخ الأندلس أو ما يسميه بعضهم "تاريخ اسبانيا المسلمة" يقف مدهوشاً أمام وفرة المؤلفات القيّمة التي تلقي الأضواء على تلك الحضارة وعلى آثارها في العلوم والفنون والأدب واللغة. يبدو أن الاسبان قد اقتنعوا اليوم بأن القرون الثمانية التي مكث فيها العرب في بلادهم لم تكن قرون احتلال عادي أو اغتصاب أتّسم بالتدمير والتعصّب الديني لأنهم أخذوا يولون ذلك التاريخ المشترك الطويل كلّ عنايتهم ويرون فيه مثالاً نادراً للبناء والتقدم والتسامح. فقد أسلم في أثر الفتح من شاء منهم أن يسلم دون إكراه، وتُركت الحرية للذين رغبوا في ممارسة

ذلك هو ما فعله الأمير عبد الرحمن الأول (الداخل) يوم عزم على بناء المسجد في قرطبة. يذكر المؤرخون، العرب والاسبان، أن الفاتحين المسلمين وجدوا في قرطبة بعد استيلائهم عليها كنيسة كبيرة مقامة في وسط معبد روماني قديم، فتقاسموها مع المسيحيين وجعلوا من نصفها مسجداً لهم، وعندما كثر عددهم في المدينة وضاق بهم المسجد الصغير، فكّر عبد الرحمن الأول بشراء الكنيسة، فعوّض على أصحابها بالمال قبل أن يأمر ببناء مسجد قرطبة الشهير La Mezquita سنة ٧٨٥م وفق ١٦٩هـ. ويقرّ الاسبان بأن الفتح الإسلامي في بلادهم كان عنواناً للتسامح والرقي، وأنه كان ينبوعاً لحضارة أندلسية عربية مشتركة خلّفت لهم تراثاً فنياً وأدبياً وآثاراً خالدة كتبوا عنه الكثير، وأخذوا يدرّسونه في جامعاتهم بإسم: (الأدب العربي الأندلسي) فأعلام الفكر الذين نعتزّ بهم نحن ونتباهى أمثال ابن رشد، وابن خلدون، وابن زيدون، وابن العربي، وابن الخطيب هم في نظرهم عرب واسبان، أبناء حضارة مشتركة، غرسُها عربي ومنبتها أندلسي. كما أن الأمراء والخلفاء الأمويين الذين جعلوا

العاشر، من عبد الرحمن الأول حتى عبد الرحمن الثالث، أصبحوا اليوم موضع تقدير الاسبان وتكريمهم فإن أبلغ دليل على ذلك هو إقدام الاسبان على إقامة احتفالين رسميين في قرطبة، في السنوات الأخيرة، كان الأول منهما عام ١٩٦١ تخليداً لذكرى الخليفة عبد الرحمن الثالث بمناسبة انقضاء ألف عام على وفاته، حضره ممثلون عن الحكومة الاسبانية، وسفراء الدول العربية، ورفعت بلدية قرطبة نصباً تذكارياً أمام أحد أبواب مسجد قرطبة، نُقِشت عليه عبارات بليغة (بالعربية والاسبانية) تحمل آيات التمجيد والولاء للخليفة العظيم من أبناء عاصمته قرطبة. وأقيم الاحتفال الثاني في ربيع عام ١٩٦٣ تكريماً لذكرى الفيلسوف العظيم ابن حزم وكنا، زوجي وأنا، بين الذين اشتركوا فيه فمكثنا في قرطبة (التي اعتبرُها دمشق الأندلس) ثلاثة أيام، وقد دُعيت للاشتراك بهذا الاحتفال الرائع الحكومات العربية فأوفدت ممثلين عن جامعاتها، وحضره عدد كبير من المستشرقين، وسفراء الدول العربية في اسبانيا. لبست مدينة قرطبة أجمل زينتها ابتهاجاً بالمهرجان وحاضر فيها العلماء، كما عقد

بجوار سور قرطبة حيث أقيم له تمثال عظيم. قمنا آنذاك بزيارات منظّمة للمسجد الكبير والقصر وضاحيتيّ الرصافة والزهراء، وهنا أحب أن أشير إلى أن هشام الأول بن عبد الرحمن الأول هو الذي بنى ضاحية الرصافة بالقرب من قرطبة واسماها بهذا الإسم تخليداً لذكرى جدّه الأموي هشام بن عبد الملك الذي توفي في الرصّافة بالقرب من الفرات في بادية تدمر في سورية، وهي المعروفة بإسم رصافة هشام. و لم يبق اليوم من رصافة قرطبة غير موقعها حيث بنت الحكومة الاسبانية فيه فندقاً سياحياً عظيماً سمّته (الرصافة)، (La Arruzafa) أما ضاحية الزهراء التي بناها الخليفة عبد الرحمن الثالث نزولاً عند رغبة جاريته الأثيرة الزهراء، وجعل منها مدينة خيالية لسكناه فلقد أحرقها البرابرة و لم يبق منها إلا الأنقاض، ولكن أعمال التنقيب فيها والترميم سائرة على قدم وساق منذ عدة أعوام. واذكر أننا فيما كنا نتجول ذات صباح في حديقة بيت الأسقف الذي بُني على أنقاض قصر أموي بالقرب من المسجد، لفت انتباهنا علم أخضر يرفرف على أبراج القلعة المعروفة بإسم

قرطبة "دون أنطونيو غوثمان رينا" Don AnTonio Guzman Reina عن سبب رفع الراية الخضراء، فأجابه على الفور باهتمام بالغ ونبرة كلّها لباقة: (كان ابن حزم عالمنا العظيم مسلماً، وكان الإسلام دين الخلفاء والأمراء وسكان قرطبة في عصره، فإذا رفعنا العلم الأخضر يوم الاحتفال بإحياء ذكراه رمزاً لإسلامه، فهذا أقل ما يمكننا أن نفعل لتكريمه...).

وأنا أيها السيدات والسادة إذ أشيد بذكر أثرنا الطيب في اسبانيا لا أكون مغالية، ولا سيما أني وجدت أن الأسبان ينظرون إلى العرب عامة، وإلى السوريين خاصة، نظرة الصديق إلى صديق، نظرة مودة واعتبار، برهنوا عليها في مواقف عديدة لا شك في أن أكثرها أهمية هو رفضهم الاعتراف بإسرائيل رفضاً جازماً. ونحن إذ نراهم يخصصون لهذه الحقبة الطويلة من التاريخ المشترك الأبحاث والكتب والمجلات والمحاضرات، ويرصدون لآثارنا العمرانية في الأندلس المبالغ الطائلة لترميمها وصيانتها والتنقيب عما خفي منها، وينشّطون السياحة إليها فيقيمون الفنادق والاستراحات، ويشقّون الطرقات،

والأسى يحزّ في نفوسنا، أن يكتب الله لنا الاستقرار والازدهار، وأن يلهمنا لكي نحذو حذوهم ونرمّم المهمل من آثارنا، ونشجع السياحة في بلادنا بعد أن نكون قد أعددنا لها العدة اللازمة من فنادق وطرقات لنجذب السياح إلينا، ونؤمّن لهم جميع وسائل الراحة. أقول هذا لأن الملايين التي تؤم اسبانيا من مختلف أنحاء الأرض إنما تؤمها من أجل الأندلس، وإعجاباً بالشرق وآثار حضارته فيها. وبهذه المناسبة أحب أن أقصّ عليكم ما دار بيني وبين وزير الأنباء والسياحة الاسباني "دون مانويل فراغا ايريبارني Don Manuel Fraga Iribarne" في حديث جرى حول السياحة، فقد التقينا به ذات مساء فأخذ يحدثنا عن مشاريع السياحة المقبلة في وزارته، وكان ذلك في نهاية عام ١٩٦٢، ثم أعلمنا بأن مجموع القطع النادر الذي دخل على خزينة الدولة الاسبانية من مورد السياحة في ذلك العام يزيد على الأربعمائة والخمسين مليوناً من الدولارات، وأنه يأمل زيادة كبيرة عليه في العام المقبل، فابتسمت وقلت لصديقنا الوزير:

(هذا نبأ عظيم نهنئكم عليه، ولكن أحب أن أعلم بم تقدرون

فسألني متعجباً:

(معذرة يا سيدتي، لم أدرك ما تقصدين؟)

فقلت له ممازحة:

(الأمر في غاية البساطة، ألم تعلمنا قبل قليل بأن غالبية السياح الذين يقصدون اسبانيا إنما يؤمونها لمشاهدة آثار العرب فيها، ولا سيما آثار أجدادنا الأمويين؟).

فابتسم وأجابني على الفور أمام رهط كبير من الإسبان والغربيين:

(إن ما تقولينه صحيح، ولكن ما ندين به للأمويين، بناة تلك الحضارة وناشريها في بلادنا، يفوق مئات الملايين بمراحل، ونحن عاجزون عن وفائه إلا بما نكنّه للعرب ولسورية خاصة من مودة عميقة وصداقة حقة).

وهكذا نرى أن الإسبان يعتزون بالتراث العربي المشترك، ويشعرون بأنهم قريبون منا أكثر من قربهم إلى غيرنا من الشعوب الأوروبية أو الإفريقية المجاورة لهم. إن اللقاءات الحارة التي سعدت بها حيثما جلت في اسبانيا قد جعلتني أشعر أني كنت قريبة من أهلي

في قرطبة وفي مدريد، في غرناطة وفي اشبيلية، في ملقة وفي بلنسية، وفي غيرها من المدن التي عرفتها بكثير من الزهوّ لانتسابي إلى أمة العرب، فكنت أتحسّر أنا فيطفر الدمع من عيني، ثم تغمرني النشوة فاعتزّ بالجذور العميقة التي غرسناها في الغرب. كان يتملكني شعور غريب في تجوالي في مختلف مناطق الأندلس دفعني إلى التنقل بين الآثار بخطى خفيفة خاشعة لأنه كان يخيّل إلي أن صوتاً بعيداً رهيباً كان يردّد على مسمعي أبيات أبي العلاء التي يقول فيها:

صاحِ هذي قبورُنا تَمْلأُ الرُّ
حْبَ، فأينَ القبورُ من عهدِ عاد
خفّفِ الوطْءَ ما أظنُّ أديمَ الأ
رضِ إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا، وإن قُدَم العهْـ
ـدُ، هوانُ الآباءِ والأجداد
سِرْ إن استطعت في الهواءِ رُوَيْدا

كان قلبي يهفو إلى بيوتنا القديمة كلما زرت داراً عربية الطـــراز، شاميّة الطابع في مدن الأندلس، تلك الدور الجميلة الأنيقة التي تخلّينا عنها للأسف، لنقلّد الغرب في بنائنا وطراز حياتنا، وذلك خلافاً لمـــا فعله الأندلسيون الذين وجدوا فيها ما يلائم مناخهم وعاداتهم، فإذا عددنا الآثار العربية في الأندلس وجب علينا أن نخـــصص لبيوتهـــا الشرقية مكاناً لائقاً لأن الأندلسيين يفـــاخرون ببيـــوتهم القديمـــة، يحافظون على عتيقها ويحذون حذوها في بناء الجديـــد في الأحيـــاء الأثرية القديمة حرصاً على جمال طابعها، ويفتحونها للسياح مفاخرين بها وبجناتها الداخلية التي يفوح منها أرج النارنج والياســمين، والـــتي يغازل خرير الماء في صحونها الطيور المعشّشة في أغصانها. وبمناســبة ذكر البيوت الشامية الطراز في الأندلس أحب أن أصف لكم أمسية ممتعة قضيناها في قرطبة، في الأسبوع الذي جرى فيه مهرجان الشعر العربي الأندلسي، في ربيع سنة ١٩٦٣. دعانا محافظ قرطبة إلى العشاء معه، وهو محامٍ وأديب من أصدقاء العرب المخلصين، فـــصحبنا إلى مطعم مشهور يقع في زقاق ضيق من حارات قرطبة القديمة. كـــان

ماء كبيرة، وتضفي عليه أحواض الشجر والزهر سحراً خاصاً. ثم رافقنا مضيفنا في جولة رائعة على بيوت قرطبة القديمة كان عليه أن يقوم بها في تلك الليلة بالذات لتهنئة سكانها على جهودهم في تجميلها والعناية بها بمناسبة انتهاء المباراة السنوية بينهم التي ينظمها المجلس البلدي في فصل الربيع لتشجيع سكان تلك البيوت على صيانتها وغرس باحاتها بالأزهار، حيث تتألف اللجان لهذا الغرض وتزور البيوت في التاريخ المحدّد، وتمنح الجوائز المالية لأجملها. وهكذا أتيح لنا أن نطوف في أحياء قرطبة الأثرية الرائعة، وأن نزور عدداً كبيراً من بيوتها الجميلة وهي في أبهج عيد، تتدلّى من شرفاتها وجدرانها عناقيد الجيرانيوم أي ما نسميه نحن (الخبيزة) وتصدح في جنباتها أعذب الأنغام. كما أنه لا بد للعربي من أن يطرب عند سماع الموسيقى الاسبانية، أو الغناء المعروف باسم (فلامنكو) لصلته بالموسيقى الشرقية وبأسلوب الغناء في بلادنا وقبل أن ننتقل من قرطبة التي خلفنا فيها آثاراً خالدة يجب أن نتحدث عن أعظمها شأناً، عن مسجدها العظيم، الذي يُعتبر أكبر جامع في العالم الإسلامي بعد الحرم الشريف

بنائه وتوسيعه وتجميله عدد كبير من الأمراء والخلفاء الأمويين، من عبد الرحمن الأول حتى الحكم الثاني وعبد الرحمن الثالث الذي أضاف عليه زخارف جديدة وبنى له أكبر وأجمل مأذنة في الغرب سنة ٩٥١م. كان مسجد قرطبة بيتاً من بيوت العبادة والعلم، فريداً من نوعه، إذ كانت تُدرّس فيه اللغة والعلوم والآداب والشريعة والفقه، ولا شك في أنه يعبّر أبلغ تعبير عن ذروة الفن والذوق التي بلغتها الخلافة الأموية في قرطبة لأنه رافق ازدهار تلك الخلافة وتطوّر حضارتها فكان وما زال، في حالته الحاضرة، الصورة الحية التي تعكس على العالم أجمع آثار تلك الحضارة.

وإذا انتقلنا من قرطبة إلى سواها من مدن الأندلس الرئيسية نجد في كل منها أثراً معبراً عن الحضارة الإسلامية، بل آثاراً، من أكثرها أهمية وشهرة الحمراء في غرناطة. والحمراء ليست قصراً واحداً كما يمكن أن يتبادر للذهن، إنها مدينة صغيرة كانت مؤلفة من عدة قصور وجامع ومدرسة وقلعة، اتخذها ملوك وأمراء بني الأحمر مقراً لهم إبان حكمهم الذي بدأ في منتصف القرن الثالث عشر تقريباً (من سنة

أي حتى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد. تقع الحمراء على هضبة خضراء مشرفة على غرناطة وعلى السهول والجبال المحيطة بها، وقد اشتُهرت بضخامة قلعتها، وجمال النقوش ودقة الزخارف وأناقة الأعمدة والقاعات في قصرها الرئيسي وملحقاته، كما امتازت بروعة حدائقها، ومنها المعروفة باسم (جنات العريف). إن أول ما يسترعي الانتباه في قصر الحمراء عبارة (لا غالب إلا الله) المتكررة على جدرانه، والحِكم والأشعار المنقوشة عليها بخطوط عربية بديعة متنوعة مما يثير إعجاب الغربيين والشرقيين على السواء. أذكر من الأشعار المنقوشة في القصر البيت التالي:

فقْتُ الحسَانَ بحُلَّتي وبتاجي
فهَوَتْ إليَّ الشُهُبُ في الأبراجِ

وما زالت الحمراء محجّ السياح ومن آثارنا الخالدة في اسبانيا على الرغم من الزلازل التي أصابتها، والمعارك التي جرت فيها والحقت ببنيانها وزخارفها أضراراً جساماً. فعندما استعاد ملوك الاسبان غرناطة بنوا في وسط الحراء قصراً لهم ما زوال موجوداً ولكن شتان بينه وبين الحمراء

أنفسهم يعترفون بأن القصر الذي بناه ملوكهم بعد الاستيلاء على الحمراء أتى نابياً في وسطها، وكأنه يدعو الزائر إلى المقارنة بين خطوطه الهندسية الجافة وخطوط الحمراء الرائعة في رقتها وأناقتها.

كانت الحمراء وما زالت ينبوع وحي وإلهام لكثير من الفنانين من عرب وأجانب. تغنى فيها الشعراء وكان آخرهم شوقي، ووضع الموسيقيون الاسبان أمثال "البييتز" و "دي فايا" و "غرانادوس" Albeniz, de Falla, Granados, أعذب ألحانهم في إطارها الساحر. وقد أنشد فيها شاعر مكسيكي معروف يدعى "أ. دي أيكماسا" A.DE Icaza رباعية رائعة ومؤثرة نجدها منقوشة على أحد جدران القلعة باللغة الاسبانية طبعاً، ولها قصة طريفة مفادها أن هذا الشاعر قد أتى من بلاده بصحبة زوجته لزيارة الحمراء، وبينما كان يتجول في حدائق القصر، ويستمتع بالمنظر الأخاذ الممتد أمامه، رأى سائلاً أعمى يدنو من زوجته يطلب صدقة، فصحا الشاعر من استغراقه وقال لها:

(أجزلي له العطاء أيتها المرأة فلا توجد في الحياة حسرة أوجع من

وإذا غادرنا الحمراء وجدنا في مدينة غرناطة القديمة سوقاً يدعى القيصرية Alcaisaria وهو سوق ضيق جميل، مبنيّ على الطراز العربي بأروقته وأزقته ومخازنه، ووجدنا فيه مطعماً يحمل اسمه، ثم ننتقل منه إلى زيارة دور شامية الطابع، أبوابها صغيرة متواضعة، وداخلها فسيح وغني. كما يوجد في غرناطة حيّ قديم ما زال محتفظاً بإسمه العربي وهي حي "المدرسة" Almadrasa الذي شيّد فيه ملوك بني الأحمر جامعاً ومدرسة في القرن الرابع عشر.

إن آثارنا في اسبانيا آثار دولة كبيرة، وحضارة عظيمة لا يمكن لأي محاضر أن يحصيها في ساعة من الزمن، فإلى جانب الآثار العمرانية التي تكاد لا تخلو منها مدينة أندلسية، نجد آثاراً عميقة هامة قد تبلورت على مرّ العصور في الشعب الأندلسي نفسه، في تقاليده وطباعه وأدبه، فأنا لا أدعي الإحاطة بها جميعاً لأني ما زلت أدرس وأنقب لكي أضع عنها كتاباً وافياً. لقد كان آخر كتاب قرأته عن آثارنا في اسبانيا كتاباً صدر في برشلونة منذ أربعة أعوام، عنوانه (المسلمون الاسبان) من تأليف أديب ومستشرق اسباني هو "الدكتور

برشلونة، وفيه يقول إن الإسلام قد أسس في الأندلس دولة عظيمة، ثابتة الأركان، ازدهرت وعاشت القرون الطويلة بفضل عبقرية الأمراء والخلفاء الأمويين الذين وُفقوا غاية التوفيق في توطيد دعائمها على الصعيدين الداخلي والخارجي. فقد نشر الأمير عبد الرحمن الأول في قرطبة، عاصمة ملكه، التقاليد التي كانت سائدة في بلاط أجداده في دمشق آنذاك، أما خليفته عبد الرحمن الثاني فقد اقتبس عن خلافة العباسيين في بغداد الأعراف السائدة فيها. كان حكم الأمويين في الأندلس امتداداً لحكمهم في دمشق، غير أنه حظي بعمر أطول من عمر خلافتهم فيها، وباستقرار أشمل، وهذا ما يدل على وعيهم واتحادهم في الأندلس على مدى ثلاثة قرون تقريباً ألا رحم الله أمير الشعراء إذ قال:

بنو أُميَّةَ للأنباءِ ما فَتَحوا

وللأحاديثِ ما سادوا وما دانوا

عالينَ كالشمسِ في أطْرافِ دولتِهمْ

إن أثرنا العميق في الأندلس يعود إلى ذلك العهد البعيد بفضل وعي ورقي الأمراء والخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم فيها. ولما تولى الخلافة عبد الرحمن الثالث، الذي عاشت قرطبة في سنيّ خلافته الخمسين عصرها الذهبي، تألقت الحضارة العربية في الأندلس ودوّى صيتها في الغرب والشرق، وكان للنساء من حرائر وجوارٍ أثر بعيد في ازدهارها، أما "الحكَم الثاني" فلم يكن أقل اهتماماً بالعلوم والفنون عمن سبقه، بل غدت جامعة قرطبة في أيامه أبهى منارة للثقافة فضمت مكتبتها أربعمئة ألف مجلّد إذ كان يرسل رجاله إلى مكتبات دمشق وبغداد والقاهرة لنسخ المخطوطات. وكما أن الفكر العربي قد وجد في الأندلس أرضاً خصبة ساعدته على النمو والازدهار، نجد أن المرأة العربية الاسبانية قد وجدت فيها منطلقاً عظيماً لمواهبها، وحافزاً على استكمال شخصيتها، بل إطاراً مشوقاً للإبداع في ظلها. لا شك في أن المرأة تتأثر كثيراً بالمحيط الذي تنشأ فيه وتعيش فيه، ولا بد لعوامل الازدهار أو الانحطاط التي تطبع ذلك المحيط من أن تنعكس على حياتها فعندما بلغت الحضارة العربية ذروتها في الأندلس كان لا

تعلمت وعلّمت، فاحتلت مكانة مرموقة في المجتمع وفي البلاط. نالت المرأة المسلمة في الأندلس ثقافة عميقة، وحظيت بحرية واسعة لعل من أهم أسبابها اختلاط العرق العربي بالعرق الاسباني، وجوار المسيحية، ووفرة الثروة الطبيعية في الأندلس نسبة إلى فقر الجزيرة العربية آنذاك. أعتقد أننا متفقون على أن للمرأة أثراً كبيراً في نهضة الشعوب ورقي الأمم، ولهذا نرى أن الحياة في الأندلس إبان حكم أنبغ خلفاء عرفهم الإسلام فيها، كانت حياة عطاء فني عظيم أسهمت المرأة فيه مساهمة فعالة في مجالات عدّة في الأدب والموسيقى، في السياحة والعلم حيث تضافرت جميع عناصر الإلهام والتشجيع والتقدير لحفزها على هذا العطاء. لقد ذكر المقرّي صاحب: (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب) عدداً كبيراً من اللواتي تفرغن للعلم والتعليم ونسخ المخطوطات، وأكثر من ثلاثين شاعرة مجيدة وذكر الأمير شكيب ارسلان في (كتابه الحلل السندسية) مآثر كثيرة للدور الذي أدته المرأة في نشر الثقافة، والسمو بالفن، وتطوير المجتمع. ولا بد من الملاحظة هنا بأن المصادر التاريخية التي وصلتنا عن الحكم الإسلامي في

التي نجمت عنها، والحروب والمعارك الكثيرة التي كانت الأندلس ميداناً لها. يؤيد هذا القول المؤرخ الاسباني (شانتشيس ألبرنس Sanchez Albornoz) فيقول إن التراث العربي الذي فقد في الأندلس ثروة نادرة لا تعوض، ولكن القليل الذي سلم من المخطوطات العربية كنز عظيم يدعو للإعجاب فيسميه "المعجزة العربية" التي عقبت" المعجزة اليونانية" ورفعت من شأن الانسانية. أما المستشرق والعالم الألماني شبينجلر Splengler فإنه يقول إن عصر الثقافة العربية الذهبي قد امتدّ منذ عام ٧٥٠ حتى العام الألف الميلادي، وإن أكثر الصفات ملاءمة لتلك الثقافة هي صفة السحر، فيسميها: (الثقافة السحرية). ليس غريباً إذن أن تنبغ المرأة في عصر كان أمراء الأندلس وخلفاؤها، وعامة الناس فيها تقريباً، متعلمين ومولعين بالفنون والآداب، وقد درجوا على تشجيع كلّ عبقرية وتكريمها، فهذا الخليفة عبد الرحمن الثالث يحيط الشاعرة (عائشة بنت أحمد القرطبية) بكل تكريم واحترام، ويعترف لها بسموّ مكانتها العلمية لأنها كانت تملك مكتبة خاصة بها مؤلفة من أندر الآثار

الله) تتفرغ لنقل المخطوطات، وقد اشتُهرت ببراعتها في الإنشاء وجودة خطّها؛ وكذلك نجد أن قصر الحكم الثاني قد احتضن نساء مثل (لبنة) العالمة في اللغة والرياضيات، وأن جامعة قرطبة في أيام خلافته كانت أعظم جامعة عربية لتدريس الرياضيات والفلسفة والطب والفلك والكيمياء والفقه والأدب. في تلك الأجواء الراقية نبغت نساء كثيرات أذكر منهن الشاعرة القصصية (رضية) التي سُمّيت في قرطبة: (الكوكب الساطع). ورضية هذه قامت برحلة إلى الشرق العربي بعد موت الحكم الثاني ولقيت في مختلف عواصمه أعظم استقبال وأبلغ تكريم وبعد أن انتقلت الخلافة من الحكم الثاني إلى ابنه هشام تسلمت أمانة السر في البلاط امراة تدعى (نظام) وهي، كما تذكر المصادر التاريخية العربية والاسبانية، امرأة متفوقة اشتهرت ببراعتها في تدوين الوثائق السياسية والإدارية. هذا إلى جانب عدد كبير من اللواتي أسهمن في نشر التعليم في مختلف انحاء الأندلس أذكر منهن (مريم بنت يعقوب الأنصاري) التي كانت تطوف على بيوت اشبيلية لتعلم أبناءها وبناتها الصرف والنحو والأدب في خلافة المهدي

العروضية) التي اشتُهرت بهذا اللقب في مدينة بلنسية وقد تتلمذت على (عبد الرحمن بن غلبون) فأتقنت اللغة وامتهنت التدريس فقرأ عليها العالم (يوسف بن نجاح) وأخذ عنها علم العروض. أما الشاعرات الأندلسيات فإني لا أجد متسعاً من الوقت للإفاضة في الحديث عنهن ولكن أحب أن أشير إلى اهتمام المؤرخين القدامى والمعاصرين بهن، وإلى أن المستعرب الاسباني الكبير المعاصر الأستاذ اميليو غارثيا غوميث E. Garcia Gomez (وهو عضو مراسل في المجمع العلمي في دمشق) قد أصدر كتاباً في اسبانيا منذ ربع قرن عنوانه (قصائد عربية أندلسية)، ترجم فيه لكل من ابن زيدون وولادة بنت المستكفي وللمعتمد ولابن حزم ولحفصة الركونية ولكثيرين غيرهم. ولعل من أشهر شاعرتنا الأندلسيات (نزهون الغرناطية) التي عطّرت جوّ غرناطة ولياليها الغابرة بشذى قصائدها وسحر جلساتها ونوادرها مع كبار أدباء عصرها، وفي طليعتهم (أبو بكر المخزومي الأعمي). كانت نزهون تقرأ على أبي بكر المخزومي بعضاً من شعرها في بيته ذات يوم فدخل عليهما رجل وخاطب المخزومي

تخاطبُهُ...) ثم توقف لعجزه عن تتمة شطره الثاني، فأكملته نزهون على هذا النحو:

..... لَغَدَوْتَ أخْرَسَ من خلاخِلِهِ

البدر يطلع من أزرّته والغصن يمرح في غلائله!

وإذا تكلمنا عن المرأة في الأندلس لا بدّ لنا من التوقف عند أثر الإماء فيها غير أن الحديث عنهن يستوجب مقدمة قصيرة، فلقد بلغ عدد العرب الاقحاح الذين دخلوا الأندلس بعد الفتح خمسين ألفاً، وجلّهم من أتباع بني أمية والجند الموالين لهم، ثم انضم إليهم عدد كبير من البرابرة، وكان عدد سكان اسبانيا يومئذ ستة ملايين نسمة. يقول المؤرخ ريبيرا Ribera إن المسلمين الذين فتحوا اسبانيا واستوطنوا فيها من عرب وبرابرة قد أمّوها رجالاً بلا نساء، أو بالأحرى مع عدد ضئيل منهن، فاختلطوا بالعرق الاسباني بسرعة لأن الإسلام يجيز تعدّد الزوجات ولا شك في أن اختلاط العرب بالإسبان أعطى أجود الثمار إذ جعل أبناء الأندلس وبناته على مستوى رفيع من الجمال الذي يجمع بين جاذبية الشرق ونضارته، وجمال الغرب

استقدمهن الملوك والأمراء من شمال اسبانيا، وجلّهن شقراوات، وبين الشرقيات اللواتي أتين إلى الأندلس من المدينة وبغداد. يقول أحمد أمين في كتابه (ظهر الإسلام) إن الخطة التي وضعها الخلفاء الأمويون في الأندلس كانت تهدف إلى نقل ما كانت تفاخر به قصور الخلفاء في المشرق، فاقتبسوا عنهم العناية الفائقة بالشعراء واللغويين والمغنيات لذا كانت الإماء يتدرّبن تدريباً ثقافياً وفنياً خاصاً ليصبحن إما محظيات، وإما مربيات أو زوجات للأمراء والوجهاء. اشتُهرت من النساء المدنيات (نسبة إلى المدينة المنورة) (عابدة) التي كانت فقهية تروي عن أنس بن مالك، و(اشراق) التي قال عنها المؤرخ سليمان بن نجاح: (أخذتُ عنها علم العروض، وقرأت عليها النوادر لأبي علي القالي، والكامل للمبرّد). وأذكر منهن (فضل) و (قمر) اللتين عرفتا بإتقان الغناء والعزف على العود، وبالظرف والأدب والجمال. أما أثر الحرائر والجواري في الموسيقى والغناء، ذلك الأثر الذي ترسّخ في الأندلس وفي أبنائها على مرّ العصور، فإن الفضل فيه يعود لفنان بغداد الأول (زرياب) ولبناته وجواريه، فقد كان زرياب، كما نعلم،

أضاف وتراً خامساً على أوتار العود وأول من استعمل ريشة للعزف مصنوعة من قوادم النسر. كان مشهوراً بأناقته وبحافظته النادرة، يعزف ويغني أكثر من ألف لحن، وعندما هاجر من بغداد إلى الأندلس استقبله عبد الرحمن الثاني وحماه، وجعله سميره وأنيسه، ولم يطل به العهد في قرطبة حتى احتلّ في مجتمعها مكانة مرموقة وأصبح معلماً للموسيقى والغناء في المعهد الذي أسَّسه، ومعلماً للذوق وأصول اللباقة في المآدب والحفلات.

رافقه إلى الأنس بنتاه: (حمدونة وعليّة) وجاريتاه: (مصابيح ومُتْعَة) اللواتي تتلمذن عليه، وأتقنّ فنّ العزف على العود والغناء، فكانت له ولهن اليد الطولى في انتشار الموسيقى الشرقية في الأندلس وفي نقل التقاليد العربية إليها، وفي رفع المستوى الحضاري للحياة الاجتماعية وأصولها.

ما من أحد يستطيع أن يقول إن أثر العرب في اسبانيا قد زال بزوالهم منها، ولا ريب في أن أثر اللسان العربي في اللغة الاسبانية من أهم آثارنا في اسبانيا وأكثرها خلوداً، وأنه الدليل القاطع على أن

أغراسها. فإذا تجلت تلك الحضارة في العلوم والفنـــون والآداب، في الهندسة والتجارة والزراعة والصناعة، ومنحتنا تراثاً عربياً أندلـــسياً أفادت منه الإنسانية، فلقد كان اللسان العربي خير أداة للتعبير عـــن تلك الحضارة خلال ثمانية قرون أو ما يزيد. صحيح أن العرب عاشوا في الأندلس زهاء ثمانية قرون إبان حكمهم لها، ولكن من الثابت أن الأثر العربي في بعض مناطقها قد استمر حتى مطلع القرن السابع عشر للميلاد لأن نصف مليون مسلم بقوا في اسبانيا بعد أن اســـترجعها ملوكها لشدّة تعلقهم بها وبأرضها التي ضمّت رفاة آبائهم وأجدادهم من قبل، غير أنهم وجدوا أنفسهم عام ١٥٢٥م (وفق ٩٣٣هـــ) أمام أمرين: إما الهجرة وإما اعتناق الدين المسيحي، فهاجر بعـــضهم إلى الشمال الإفريقي مثل الذين سبقوهم إليه بعد سقوط غرناطة وبقـــي البعض الآخر في الأندلس، فمنـــهم مـــن تنـــصّر وعُـــرف بإســـم "موريسكوس" (Moriscos) فظلّ يتكلم العربية ويكتّبها إلى أن تمّ اندماجه بالإسبان نهائياً لغةً وديناً، ومنـــهم الـــذين لم يتنـــصّروا ورفضوا المغادرة، فاضطروا للموافقة على التبعية لملوك الكاثوليـــك

بقائهم فنّ جديد في الهندسة والصناعة اليدوية سُمّي: "المُدَجَّن (Mudejar)، لهذا كله لا نستطيع أن نقول بان الأثر العربي في اسبانيا لم ينتهِ بزوال سلطانهمن عليها.

لقد تعرض المدجنون إلى مضايقات كثيرة ولكنها تبدو طفيفة إذا قيست بالاضطهاد العنيف الذي لقيه اليهود الذين استوطنوا في اسبانيا. يجدر بنا أن نذكر أن جلاء العرب عن الأندلس قد حدث على مراحل إذ استعاد الاسبان طليطلة في القرن الحادي عشر، ثم قرطبة في القرن الثالث عشر، وأخيراً عام ١٤٩٢، ويذكر المؤرخون أن الملك الفونسو العاشر الذي حكم طليطلة بعد خروج المسلمين منها بحوالي مئة وسبعين عاماً وهو الملقب بالملك "العالم" نظراً للخدمات العلمية التي حققها لبلاده قد اختار عالماً من المدجنين يدعى: "ألونسو دل كاستيّو" (Alonso del Castillo) ليكون مستشاره الخاص وترجمانه، فقد اشتهر بتكريم أئمة الفكر المسيحيين والمسلمين وتقريبهم من بلاطه، كما استفاد من علمهم لترجمة مؤلفات ابن رشد وابن سينا وابن باجة من العربية إلى

وهؤلاء المدجنون وكذلك الموريسكوس قد حافظوا على لغتهم العربية فترة من الزمن ثم وجدوا أنفسهم مضطرين للتخلي عنها تدريجياً. كانوا يكتبون رسائلهم ومؤلفاتهم باللغة العربية مع استعمال حروف لاتينيّة، فتولدت ثقافة خاصة بهم، مميزة لهم، سميت "الأعجمية" (Aljamiada) غير أنها لم تعمّر طويلاً لانصهارهم في البوتقة الاسبانية لغة ودياناً على تعاقب الأجيال.

وقبل أن نتحدث عن أثر الموريسكوس والمدجنين في اللغة الاسبانية في مختلف بقاع الأندلس لا بد لنا من التحدث عن طبقة "المستعربين" (Mozarabes) وهم أبناء البلاد الذين تأثروا بالثقافة العربية والحضارة الإسلامية إبان الحكم العربي في اسبانيا. لقد حافظ هؤلاء على معتقداتهم الدينية غير أنهم تعلموا العربية وتبنوها في حياتهم وكانوا يتكلمون كذلك لغة بلادهم الأصلية المشتقة من اللاتينية، والتي كانت تعرف باسم الرومانية، وهي نواة اللغة الاسبانية. فالحكم العربي في الأندلس توطدت دعائمه في إثر حكم الفيزيقوطيين (Vesigodos) وهم قوم من الجرمان احتلوا اسبانيا في القرن الخامس الميلادي قادمين من ايطاليا وفرنسا وتبنوا لغة الرومان

وأسمائهم ومفرداتهم ولكن حصيلة ما قدموه لتغذية اللغة الاسبانية لا تُقارن بما قدمه العرب إليها من لسانهم الغني لأنها لا تجاوز مئة كلمة، في حين أن ما دخل إليها من العربية تجاوز أربعة آلاف كلمة.

يقول العالم الأستاذ "رفائيل لابيسا" (Rafael Lapesa) في كتابه "تاريخ اللغة الاسبانية" إن العامل العربي في تكوينها كبير الأهمية ويأتي مباشرة بعد العامل اللاتيني ونحن نرى فيها اليوم عدداً كبيراً من المفردات التي تبتدئ بأل التعريف مما يرشدنا في أحيان كثيرة إلى أصلها العربي، غير أن قليلاً منها بقي على حاله الأصلي كتابةً ولفظاً والأكثر هو الذي أصابه التحريف لما يوجد من فوارق كبيرة بين حروف العربية وحروف اللاتينية، وبين جرس الأولى وجرس الثانية، وأسلوب لفظهما، وبين ذوق الأذن الإسبانية وذوق الأذن العربية، فلكل قوم في لغاتهم ما ألفوا وما توارثوا، وهذا هو السبب في اختلاف وسائل التعبير واللهجات واللغات. كان لا بد إذن للاسبان من سكب المفردات العربية، وأسماء الإعلام، وأسماء المواقع الجغرافية والمدن التي أطلق عليها العرب أسماء عربية في قالب

وأحرف هجائهم من جهة ثانية فنحن نجد أن كلمة "الساقية" قد أصبحت بالاسبانية (اثيكيا: Acequia) والقاضي (Alcalde) والمعصرة (Almazara) والضيعة (Aldea) وذلك لعدم وجود كل من القاف والعين بالأبجدية اللاتينية. ويلاحظ هنا فيما أوردت من أمثلة، في كلمتيّ الساقية والضيعة أن حرف الألف المفتوحة قد أصبح (الفاً مائلة) أي أنه قد لحقت به الإمالة، فالإمالة شاعت كثيراً فيما انتقل من العربية إلى الاسبانية والبرتغالية وهي ظاهرة في طائفة كبيرة من الكلمات والأسماء كما نجد أن كلمة "حتى" أصبحت (Hasta)، وكلمة الوزير (Alguacil9 وقلعة أيوب (Catatuyud) ومدينة سالم (Medinaceli) ووادي الحجارة (Guadalajarra) ووادي الكبير (Guadalquivir) الخ. .

ومما يلاحظ كذلك أن الأسماء العربية والمفردات المسكّنة في آخرها لم تتفق والذوق الاسباني فتحرّك آخرها لدى اقتباسها بأحرف صوتية مثل (آ) أو (أُو) أو (أي) (a, o, I) بحيث أصبح السوق: (Zoco) وفلان : (Fulano) ومولّد (Muladi) ومعناها

الحكم العربي باسم (Muladies)، والزيت: Aceite والجبر: Algebra والمسجد: Mesquita إلخ..إلخ.. والأمثلة أكثر من أن تحصى. وكذلك حرّف الإسبان أسماء المدن والقرى والقلاع التي شيّدها العرب في بلادهم، كما أصاب التحريف أسماء بعض الأنهر والمواقع الجغرافية التي أطلق عليها أسلافنا أسماء عربية، ومثالاً لذلك نرى أن مدينة مجريط تحولت إلى "مدريد" ومدينة سالم صارت (Medinaceli) ومُرسية: (Murcia) و "بني سالم" في جزيرة ميورقة (مايوركا) (Benisalem) واليابسة: (Ibiza) وهو اسم إحدى جزر الباليار، وقلعة النور: (Calatanasor). وقلعة أعرج: (Calatarage) ونهر وادي العين: (Cuadalen) ووادي الرملة (Guadarrama)، وغيرها كثير. وهذا ما يجعلنا نتوقف عند المرور بمثل هذه المفردات والأسماء العربية الأصل مستغربين ما لحق بها من تحريف.

إن ما نقوله عن التحريف الذي لحق بأغلبية المفردات والأسماء العربية لدى اندماجها باللغة الاسبانية قد أصاب كذلك الأسماء

الإعلام وأسماء المدن والمقاطعات والمواقع الجغرافية المختلفة في شبه الجزيرة الإيبيرية وفي جزائرها الشرقية فقد تعارف أسلافنا على تسمية بعضها بما يتفق وذوقهم السماعي واللغوي فأطلقوا اسم طليطلة على مدينة (Toledo) واسم ملقة على (Malaga) واسم طركونة على مقاطعة (Tarragona) واسم قطلونية على مقاطعة (Cataluna) وهلمّ جراً. ولكن الأهم من هذا أنهم تحروا في أحيان أخرى أصل أسماء المدن القديمة اللاتيني (الإغريقي الروماني) وشكلوا أسماءها العربية استناداً إلى هذا الأصل، فمدينة سرقطة (Zaragoza) مثلاً قد سُمّيت كذلك عند العرب لأنها كانت معروفة في القديم باسم (Caesaraugusta) ومدينة Y ستجة (أثيخا اليوم (Ecija) كانت في الأصل (Astigi)، وشاطبه (Jativa) كانت تُدعى (Sactabis)، أما اشبيلية (Sevilla) فإن اسمها العربي مشتق من اسمها اللاتيني (Hispalia)، وقرطبة (Cordoba) من قُرطب (Corteb) وهو اسم القرية الرومانية القديمة التي توسّعت بعد الفتح العربي وأصبحت عاصمة ملك

جانب الاشتقاق اللغوي الذي جرى عليه الاسبان لـــدى تـــبني المفردات العربية من أهم جوانب هذا البحث، فكما جرى العـــرب على اقتباس جزء من أسماء المدن القديمة حين تسمية مجريط مثلاً التي شيدوها وأعطوها إسماً مركباً من كلمة "مجرى" لوفرة مجاري الميـــاه فيها، ومن المقطع اللاتيني (غيت IT) فأصبحت مجـــريط، نجـــد أن الاسبان درجوا على تركيب مفردات جديدة في لغتهم كـــثيراً مـــا اتخذت معنى عربياً بعد أن أجروا عليها تعديلات مقتبسة من التركيب العربي. لقد أَلِفَ الاسبان هذه المؤثرات في حقبةٍ تعايشهم الطويلة مع العرب فشاعت على ألسنتهم وما زالت جزءاً لا يتجزأ من قـــاموس لغتهم. ونحن نعلم أن العرب تعارفوا على تسمية الغني: "ابن الدنيا"، واللص: "ابن الليل" لأن الظلام يساعد على السرقة، فأَلِفَ الأسبان هذه التعابير الرمزية وأصبحوا يسمون اليتيم: "ابن الحجر"، والمتديّن: "ابن الإحسان"، والسطحي: "ابن يومه" الخ.. ثم درجت في اللغـــة الاســـبانية كلمـــة هيـــدالكو (Hidalgo) المركبـــة مـــن (Hijodalgo) أي: "ابن الخير"، وأصبحت تُطلق على النـــبلاء

تفسيرها الملك الفونسو العاشر الملقب بالعالم وقال إنها من المفردات الاسبانية المركبة على غرار بعض الكلمات العربية. وقد شاع في مقاطعات ليون وقشتالة والأندلس إطلاق أسماء على الأشخاص أو الأسر انطلاقاً من التقليد العربي، لذا كنا نجد أفراداً من الاسبان بإسم (Almodafar) أي المظفر و (Maimon) أي ميمون، وعبد العزيز في ملقة هو (Abdalaziz) كما أن سليمان في "الباسيتي" هو (Zulema)، كما أنهم كانوا يكّنون بعض أسرهم حتى القرن الحادي عشر بإسمين مركبين أولهما عربي (ابن او بن أو بني) والثاني لاتيني اسباني على غرار كنى بعض الأسر العربية، فعرفت بينهما أسر مكناة ببني غوميث (9Benigomez وبينافيدس (Benavides) وغيرهما.

وهنالك في اللغة الاسبانية طائفة من الكلمات التي تبناها الاسبان وحافظوا على معناها العربي وأصابها بعض التحريف ومنها: "العيب" (Aleve) و "حسنة" (Hasana)، والحِصان: (Alazan) كما نجد أنهم صرّفوا أفعالاً اسبانية انطلاقاً من الكلمة الاسبانية

في كلمتي صبح ومساء اللتين تولّد عنهما فعلان هما: أصبح وأمسى، إذ أننا نجدهما في فعلي: (Anochecer)،(Amanecer) .

وأخيراً لا بد من القول بأن أثر لساننا العربي كان كبيراً في أسلوب التعبير الاسباني بل حتى في أسلوب التفكير ذاته إذ أن الاسبانية تبنت عبارات عربية وجملاً برمتها ونقلتها وترجمتها حرفياً والفتها كقولهم: "إن شاء الله" (Ojala) وأعانك الله: (dios le Ampare) والله يحفظك (Que Dios Guarde) وبارك الله بالأم التي حملتك (Bendita sea la Madre Que to Pario) إلى آخر ما هنالك من سلسلة التعابير التي لا يعرفها في أوروبا غير الاسبان، والتي تنم عن عقلية خاصة، عربية اسبانية، من أسبابها الإيمان القوي، وعادة التمني والتبريك في الحديث.

واليوم ونحن نستعرض ذلك التاريخ المشترك الطويل ونتحرى عوامل الأثر العربي في اسبانيا وفي لغة الإسبان لا يسعنا إلا أن نقف موقف المعجب بما نقل العرب إلى الأرض الاسبانية من علوم وفنون وتقاليد، وبأبنائها الأصليين الذين رحبّوا بما حمله الفاتحون إليهم من

أوروبا الغربية في القرون الوسطى. كما يجدر بنا أن نعترف بفضل "المستعربين": (Mozarabes) الذين تأثروا بالتمدن الإسلامي، واللغة العربية، والتقاليد فاستعربوا باختيارهم فكراً وقلباً، وحافظوا على لغتهم وحضارتهم وتقاليدهم قرناً في أثر قرن، وغاروا عليها، ودافعوا عنها، وأسهموا بذلك في نقلها إلى العالم الغربي.

ولا شك في أن إنقاذ المدجنين لمسجد قرطبة بعد جلاء العرب عنها كان من أعظم مآثرهم فلولا بقائهم في الأندلس لأصبح ذلك المسجد الرائع أثراً بعد عين. واسمحوا لي أن أروي لكم القصة التاريخية التالية: احتلّ الملك فرناندو الثالث قرطبة عام ١٢٣٦ فتوجه تواً إلى مسجدها الكبير، يتبعه قواد جيشه ورجال الدين، وأقرّ بناء كنيسة ضخمة فيه بالقرب من حائط القبلة هي كنيسة سان كليمنتي (San Clemente)، فكان لا بد من قلع بعض أعمدة المسجد الداخلية الجميلة لإقامتها. ثم تولى الحكم الملك الفونسو العاشر (العالم) وأمر بتشييد كنيسة ثانية في قلب المسجد، ولكن هذا الملك كان مقدراً لهذه التحفة الأثرية كل التقدير، وحريصاً على سلامتها

زخارفها فأصدر أمراً دعا فيه جمع العمال والبنائين المدجنين القاطنين في قرطبة وضواحيها للعمل في مسجدهم القديم بالتناوب لكي يحافظوا عليه ويحولوا دون تداعي بنائه. والأجمل من هذا أنه كافأ أربعة منهم: نجارَيْن وبنائَيْن، بإصدار قرار ملكي سنة ١٢٨٠م. يعفيهم من جميع الضرائب والرسوم المترتبة عليهم اعترافاً منه بمهارتهم في أعمال الصيانة والترميم التي قاموا بها خير قيام. وبمناسبة الحديث عن مسجد قرطبة لا بد من الإشارة إلا أن الكنيسة الكبيرة الموجودة حالياً في وسطه قد شُيدت في القرن الخامس عشر فلقد روى لنا المؤرخان الاسبانيان "ياغونو" (Liaguno) و "توريس بالباس" (Torres Balbas) قصة مفادها أن نزاعاً عنيفاً قد نشب في قرطبة في القرن الخامس عشر بين رجال الدين ومجلس البلدية حول هدم جزء كبير من المسجد لإقامة الكاتدرائية، فأصدر المجلس البلدي بياناً هدّد فيه بعقوبة الإعدام كل من يشترك بأعمال الهدم في المسجد، بينما أصرّ رجال الكنيسة على تنفيذ اقتراحهم فأرسلوا مجلس الكهنة إلى القصر الملكي لأخذ موافقة الملك وربحوا المعركة.

الفخمة في المسجد وزار المسجد الأثري العظيم وشاهد الكاتدرائية الحديثة فيه التي شوّهت جماله وتناسق خطوطه وأتت نابية في وسطه. كان يرافقه كبار رجال الكنيسة، فامتعض مما شاهد وقال لهم متأثراً:

(ما كنت أحسب المسجد على هذا الجانب من الروعة والأناقة، ولو كنت قد عرفته من قبل لما سمحت لكم بمسّه لأن ما بنيتم فيه يمكن أن يُبنى في أي مكان وزمان، أما ما أقدمتهم على تجزئته وهدمه فإنه تحفة فريدة في العالم لا يمكن تقليدها ولا التعويض عنها!).

والمدجنون، أيها السيدات والسادة، كانوا السبب في بقاء أسماء عربية كثيرة في مدن الأندلس وقراها لأنهم حافظوا عليه جيلاً بعد جيل وإلى جانب هذا نجد أن عدداً كبيراً من الإسبان الذين أسلموا إبان الحكم العربي في الأندلس قد احتفظوا بأسمائهم العربية وأؤكد لكم أن جميع أفراد الأسر الاسبانية التي عرفتها والتي تحمل أسماء عربية تعتز بها لأنها أكبر برهان على قدمها وعراقة أصلها. وبهذه المناسبة سوف أروي لكم حادثتين طريفتين: وصلت إلى العاصمة الاسبانية في مطلع سنة ١٩٦٢، فتوجهت ذات صباح إلى دار زوجة مدير وزارة الخارجية [illegible] (كورتينا) (Cortina) [illegible]

أهلاً ببنت العم!

دُهشت لحظةً إذ لم نكن قد تعارفنا من قبل ولكني ابتهجت بهذا اللقاء الجميل ورددت التحية بتأثر ظاهر،فأخذت صاحبة الدار تعلمني بكثير من الفخر أنها سليلة أسرة عربية قديمة، عاش أجدادها في الأندلس منذ مئات السنين وما زال أحفادهم محتفظين بكنيتهم العربية فأبوها، من أسرة (القصير) (Alcocer) ثم ابتسمت وقالت لي:

لا تعجبي لأني دعوتك (بنت العم) فأنا سعيدة بالانتماء إلى أسرة القُصَيْر، وليس ببعيد أن يكون أجدادي وأجدادك أبناء عمومة.

كانت زيارتي للسيدة كورتينا بنت القُصَيْر أي القصر الصغير، ينبوع سعادة لي، ومدعاة لتأملات طويلة شوّقتني بالتعمق في دراسة أثرنا في اسبانيا. وبعد مدة وجيزة تعرفنا باسرة "لو كادي تينا" (luca de Tena) الأسرة التي أسست في أواخر القرن الماضي أكبر صحيفة اسبانية هي جريدة "أ.ب.ث" (A.B.C) وأذكر أننا دعونا مدير هذه الصحيفة إلى الغداء فقبل الدعوة ووعد أن يحضرها مع زوجه، فإذا هي من الشقراوات الجميلات ومن أظرف الاسبانيات

إني سعيدة بمعرفة سورية فقد زرناها زوجي وأنا قبل عشرين عاماً في أثناء قيامنا برحلة شهر العسل، وأحببنا دمشق كثيراً فأقمنا في فندق "اوريان بالاس" وتناولنا عدة أطباق دمشقية لذيذة، اقتبست بعضها وما زلت أصنعها في بيتي.

وهنا ابتسم زوجها وقال لي:

لا تستغربي يا سيدتي ما تقوله (بلانكا) لأنها من أصل دمشقي.. إن زوجتي من مدينة ملقة في الجنوب وهي تنتمي إلى أسرة "بني أمية" "Benihumeya" وهكذا ترين أنها تنحدر من العرب الدمشقيين مباشرة.

وهنالك ظاهرة جديرة بالإشارة وهي حرص الإسبان على الانتساب إلى أمهاتهم، لأنهم يحتفظون بكنيتي الأب والأم، وهذا هو السبب في الأسماء الطويلة التي يحملونها.

كما أننا نجد أثرنا في اسبانيا واضحاً في بعض التقاليد الاجتماعية وفي الأدب والفن.ففي مدينة بلنسية يوجد تقليد عربي قديم احتفظ به سكانها حتى يومنا هذا معروف باسم : "محكمة المياه"

واهتمامهم بمدّ الأقنية وهندسة مشاريع الري لمن آثارهم الهامة التي انتفعت بها المدن والقرى والحقول، ومحكمة المياه هذه مازالت تعقد جلساتها في بلنسية مرة كل أسبوع للفصل بين المزارعين في حالة خلافهم على حق الانتفاع بمياه الري العامة.

أما النساء الأندلسيات فقد ورثن عن العربيات والمستعربات حبّ الأدب والشغف بالموسيقى والغناء فلقد عثرت على وصف قديم لامرأة موريسكية، نشره الأديب الاسباني "هورتادودي مندوسا" (Hurtado de Mendoza) في القرن السادس عشر، ونقله الدكتور العالم والمؤرخ غريغوريو مارانيون (Gregorio Maranon) في كتابه (أبناء فيليث الثلاثة) قال فيه (كانت تلك السيدة كريمة الأصل، نسيبة آل حُميّة، رائعة الحسن، جذابة الحديث، قوية الحجة، بارعة بالعزف على العود، تجيد الغناء والرقص على الطريقتين العربية والاسبانية). وذلك بعد انقضاء مائة عام على نزوح العرب عن اسبانيا.

كان لا بد للأدب الاسباني من أن يتأثر بالأدب العربي، وينهل من

من شعر عربي وأدب وفلسفة فهذا أديب كبير من أدباء القرن الرابع عشر يدعى "أرثيبيستي دي هيتا" (Arcipeste de Hita) يؤلف كتاباً عظيماً عنوانه (كتاب الحبّ الطيب) فإذا به يشبه كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم شبهاً جلياً وهذه مسرحية (كالدرون) الشهيرة التي عنوانها (الحياة حلم) متأثرة بالفلسفة العربية حسب اعتراف الدكتور فيرنيه، (وكالديرون من أدباء القرن السابع عشر). وكذلك رائعة سيرفانتس الخالدة (دون كيشوت) تشهد بأن الصفات التي تميّز بها أبطال روايته، وأن الهدف الذي كان يرمي إليه من وراء مغامراتهم، من شجاعة وإيمان وشهامة ووفاء تذكّرنا بصفات الفارس العربي وطباع الشاعر العربي، ثم إن اللغة التي كان الشاعر العربي يخاطب بها حبيبته وعشيرته وربّه هي لغة دون كشوت بل لغة أدباء القرون الوسطى في أوروبا حيث أن أكثر مؤلفاتهم أهمية كانت مستوحاة من آداب العرب والجرمان وتقاليدهم. وأودّ أن أضيف إلى كل ما تقدم تغلغل أثرنا في أسلوب التعبير لدى الإسبان، في مراسلاتهم وأحاديثهم، فإنهم ما زالوا يقولون في الكتابة والحديث:

الله أسأل أن يحفظك سنيناً عديدة، وإن شاء الله، وجعل الله دارك

العرب وعايشتهم قروناً طويلة، وتطبّعت بطباعهم، واقتبست أعـــرافهم لأثر عميق، أقوى من أن تزيله السنون والتيارات الزمنية المختلفة.

كلنا يعرف أن الحضارة العربية في اسبانيا قامت على دعائم ثابتة، وأنها لم تنل الشهرة التي حظيت بها، و لم يُكتب لها الخلـــود عبثـــاً، كانت تلك الحضارة حضارة علم وثقافة وفن، كانت حضارة أصالة وتفوق وإبداع، لم تدع ميداناً مهماً كان وعـــراً إلا وســـلكته، و لم تلمح أفقاً مهما كان بعيداً إلا تاقت إلى بلوغه. قلت في بـــدء هـــذا الحديث: لا بد للعربي الذي يزور اسبانيا أو الذي يطلع على آثارنـــا فيها من أن يتألم، فالاطلاع يدفعه إلى المقارنة، والمقارنة أمر مفيد بل ضروري لمن يرغب في استكمال شخصيته وبناء أمته. ولا أقـــول إن العربي يجني من زيارة الأندلس ودراسة أثرنا فيها الألم فحسب، لأنه يشعر فيها بالاعتزاز بأصله، وبالغيرة على ماضيه فتتولّـــد في نفـــسه الرغبة في السعي للنهوض بحاضره حتى يبلغ مستوى ذلك الماضي.

يخرج العربي المفكر من جولته في اسبانيا وهو يود في أن يكـــون أهلاً لتلك الحضارة الخلاقة، فيتولّد من ألمه الأمل، ولكنه يقرّ بـــأن

آن لأننا أن نجابه الواقع بكل شجاعة، وآن لنا كذلك أن تخفّف من غلواء التغني بالماضي وأمجاده لنا أمة طموح، حرّي بها أن تتطلع إلى المستقبل بعيون لا تبصر إلا الواقع، وعقول جريئة تمزق الغشاوات وترفض التضليل، ونفوس واثقة بانتصار الحق. إن من واجبنا، نحن أبناء هذه الأمة الناهضة، أن يعمل كل واحد منا على قدر إمكاناته بإخلاص وتفان وإيمان لنستكمل عناصر نهضتنا،ولنكون جديرين بالانتساب إلى حضارة عريقة، خيّرة مبدعة، تجلت فيها عبقرية الفكر العربي بكل بهائها، وكامل حريتها، كما لم يتح لها أن تتجلى لا من قبل ولا من بعد.

وأخيراً أودّ أن أشكركم على تكرمكم بالحضور إلى هذا المنتدى الراقي الذي تفضل وأتاح لنا فرصة هذا اللقاء.

المرأة العربيّة

محاضرة أُلقيت

باللغة الاسبانية

في قاعة الأتينيؤ Ateneo في مدريد

بناء على دعوة وزارة الإعلام الإسبانية

في ١٨ شباط ١٩٦٣

المرأة العربية

«... وإذا كنـــــت سأتحدث عن المرأة، عن دورها في تاريخنـــا وفي أدبنا، فأرجو ألا تظنوا أني سأهاجم الرجل... فكيف و(هو) الـــذي صنع التاريخ وكتبـــه، وسنّ القوانين، وفـــسّر الشرائع؟..»

أيها السيدات والسادة:

حين تفضل الدون خواكين كالفو سوتيللو (Don Joaquin Calvo Sotelo) رئيس جمعية المؤلفين الاسبان، بتقديمي إليكم بالعبارة الكريمة التي سمعتموها، شعرت بتأثر عميق أوقعني في الحيرة فأنا لا أدري كيف أعبر له عن بالغ شكري وأعترف لكم بأن الصفات الطيبة التي نسبها إليّ الآن كانت، وما زالت، الهدف الذي أرنو إليه، وأتطلع لبلوغه. ومع أن الكلام بعد كاتب مرموق، وخطيب مشهور كالدون خواكين كالفو سوتيللو ليس بالأمر اليسير، فإنكم سترون بعد الاستماع إلى حديثي أنني لا استحق ما أضفي عليّ من مديح، ولا ما أسبغ عليّ من ثناء. وقبل البدء بالموضوع، أرغب في أن أتقدم إليكم بالشكر أنتم الذين شرفتموني بالحضور، وأشكر بصورة خاصة السيد وزير الأنباء والسياحة (دون مانويل فراغا ايريبارني (Don Manuel Fraga Iribarne) على حضوره ورعايته هذه المحاضرة، كما أشكر رئيس وأعضاء نادي الأتينيو الذين دعوني لإلقائها في هذه القاعة العظيمة.

قضيت في اسبانيا الصديقة أكثر من عام، فلمست من خلال الصداقات الودية التي نعمت بها، رغبةً مخلصة لدى الإسبان في معرفة بعض الحقائق عن وطننا وأمتنا. ولا يدفعني إلى التحدث في هذا الموضوع اليوم، إلا حرصي على زيادة هذا التعارف المتبادل لأني أعتقد أن الصداقة التي تربط بين الأفراد والشعوب تزداد قوة بازدياد تعارفهم. ويسرني كثيراً أن أحدثكم عن المرأة العربية: عن حياتها وعن مشاعرها، وعن كفاحها المتواصل منذ العصور القديمة لبلوغ حياة لائقة بأهدافها. وأظن أن المرأة العربية ليست مجهولة لدى الإسبان، ولا سيما أن ذلك الماضي الطويل المشترك بيننا، وإن هذه القرون الثمانية من ضيافتكم لنا، أدت إلى تعاون فكري وفني عميق الجذور، أضف إلى ذلك أن التراث الفكري والثقافي يوضح هذا التفاهم السريع بينكم وبيتنا، ولا سيما عندما نلتقي وجهاً لوجه، وأن ما يُسهم في توطيده هو التشابه بين طباعكم وطباعنا، وبين آمالكم وآمالنا، وبين حبكم للبساطة، وشغفنا بها.

وإذا كنت سأتحدث عن المرأة فأرجو أن لا تظنوا أني سأهاجم

القوانين وفسر الشرائع..والرجل هو الذي ابتدع أسطورة قديمة جداً عن المرأة يقول فيها:

"لقد خلق الله في البدء السماوات والأرض، ثم خلق الرجل، وعندما أراد أن يخلق المرأة وجد أنه استنفذ كل العناصر والمواد التي كانت لديه، لذلك عاد إلى الكون الذي أوجده واستخلص منه المرأة على الشكل التالي: أخذ من الشمس حرارتها، ومن الريح تقلباتها، ومن المحيط عمقه، ومن الأمواج مدّها وجزرها، ومن الغيوم دموعها، ومن الفجر ابتسامته، ومن النبات رعشته، ومن الزهر أريجه، ومن الأوراق خفتها، من حفيف الأشجار حنانها، ومن الخمر نشوتها ومن العسل حلاوته، ومن الذهب بريقه، ومن الماس قسوته، ومن الريم رشاقتها ومن الأرنب عفته، ومن الثعلب خبثه، ومن الطاووس غروره، ومن الزمن غدرهُ، ومن الببغاء ثرثرته...

ثم مزج الخالق هذه العناصر وكوّن منها المرأة، وأعطاها للرجل. وبعد أسبوع انقضى جاء الرجل إلى الخالق وقال له: "ربي! إن ما أعطيتني قد سمّم حياتي.. إنها تتكلم بدون انقطاع، وتبكي بلا سبب،

المرأة. ولم يكن قد انقضى أسبوع آخر، حتى عاد الرجل إلى الإلـــه يقول: "إن حياتي بدون المرأة ليست ممكنة، واشعر أن هذا الكـــون، بكل خيراته، أمَرُّ من المنفى بدونها. إنني أذكر كيف كانت تنظر إليّ بحنان، وكيف كانت ابتسامتها تجدد نشاطي، وضحكتها تخفف من آلامي. إنني أذكر كيف كانت تنسيني متـــاعبي، وتجمّـــل أيـــامي وأحلامي بعطفها عليّ. أعدها إليّ يا رب!".

فأعاد الله المرأة إلى الرجل. وبعد ثلاثة أيام رجع الرجل إلى الخالق وهو يقول إن المرأة تسبّب له من المزعجات أضعاف ما تعطيه مـــن السعادة، وإنه لا يستطيع أن يعيش معها. عندئذ غضب الخالق مـــن تقلبات الرجل وقال له: "كيف تريد أن أفهمك وأنت لا تستطيع أن تعيش مع المرأة ولا ترغب في الحياة بدونها".

هذه هي الأسطورة التي تخيّلها رجل، لا ندري هل كان عربياً أو إسبانياً؟ ولكنه على الرغم من مهاجمته العنيفة للمرأة "ســـامحه الله"، فقد وصفها وصفاً شاعرياً ساحراً لذا سأحاول في حديثي إليكم عن المرأة العربية أن أرسم لوحة ايجابية واقعية عن الدور الذي قامت بـــه

أسلافنا، فلا بد من أن نلقي نظرة سريعة على هذا التاريخ لنحـــدّد دور المرأة في مختلف الميادين.

يجد الزائر لأراضينا العربية آثاراً وبقايا مدن تعبّر عن عظمة أصحابها الذين بعثوا الحياة فيها وجعلوها منطلقاً لحضارة تجـــاوزت الـــصحاري والحدود، وهذا ما نجده مثلاً في أطلال تدمر الواقعة في شرقي ســـورية. لقد عاشت تدمر عصرها الذهبي خلال حكم امراة عظيمة، هي الملكة (زنوبيا) Zenobia، وبلغت تدمر يومئذ من الازدهار والجمال مـــا جعل المؤرخين يسمونها يومئذ (عروس الصحراء). تـــسلمت زنوبيـــا الحكم عام ٢٦٧ بعد المسيح، بعد مقتل زوجها الملك "أُذينـــة الثـــاني" خلال وصايتها على العرش. ست سنوات من الحكم المباشـــر كانـــت كافية لتخليدها بين أبطال تاريخ الشرق العربي.

كانت زنوبيا سمراء، هيفاء، ذات شخصية قوية، وذكاء حاد، تمارس الصيد والفروسية، وتقود الجيوش، بالإضافة إلى ولعها بالأدب، وتكريمها العلماء والحكماء بتقريبهم من بلاطها. فقد جعلت من البليغ اليونـــاني السوري "لونجينوس" (Longinos) وزيرها بعد أن كان أستاذها في

وتطالع آثار هوميروس وأفلاطون. أما رقيّ عاصمتها تدمر وتجميلها، فقد أعارهما زنوبيا اهتماماً خاصاً، فإن الأعمدة الرائعة التي كانت تصل بين قصرها وبين قلب المدينة ما زالت قائمة وسط الصحراء، وكأنها تتحدى الزمان والفناء.

كان وضع المرأة العربية في المناطق الأخرى كالحجاز ونجد مثلاً، في ذلك العصر، أي في القرن الثالث الميلادي مختلفاً كل الاختلاف عما كان عليه في سورية، فقد انحصر نشاط المرأة في الجزيرة العربية بأعمال النسيج اليدوية، ورعي المواشي، والعناية بالجرحى إبان الغزوات المتواصلة بين مختلف القبائل، ومع ذلك، فقد ظهرت بعض النابغات من النساء في الخطابة والرواية والشعر.

تشير الآثار الشعرية القديمة التي وصلت إلينا إلى أن الرجل العربي كان يخاطب المرأة العربية بلغة أصبحت، فيما بعد، لغة الفرسان وأدباء القرون الوسطى في أوروبا. إن مؤلفاتهم مستوحاة، بدون شك، من التقاليد العربية والجرمانية معاً، فلم يذكر سرفانتس عبثاً اسم رجل عربي في مقدمة كتابه الخالد دون كيشوت، لأنه كان

والمرأة تتأثر كثيراً بالمحيط الذي تعيش فيه فتزدهر إذا كان مزدهراً وتتخلّف إذا كان متخلفاً، وهذا هو سبب تميّز المرأة العربية بالشجاعة، وبإتقان الشعر، وبالخطابة، لدى القبائل التي اشتهرت بالبسالة والبلاغة والشعر في العصر الجاهلي وبعده. والأمثلة على ذلك عديدة، فقد نبغت قبل الإسلام الخنساء،وهند بنت عُتْبة، والزرقاء، وزينب طبيبة بني أَوْد، وخديجة زوج النبي (ص) التي كانت تمارس التجارة بمقدرة ونجاح وغيرهن كثيرات إن في الشعر أو الخطابة أو الشجاعة.

إن مما يدلنا على المكانة الرفيعة التي احتلتها المرأة العربية في الأدب قبل الإسلام، نَقْدُها لكبار الشعراء، واحتكامهم إليها فهذه أم جُنْدَب، احتكم إليها اثنان من أعظم شعرائنا: امرؤ القيس زوجها، وعلقمة الفحل وبعد أن طلبت إليهما إسماعها قصيدتين في وصف الخيل على قافية واحدة، ورويّ واحد، انتقدت القصيدتين بمهارة، وفضلت أبيات علقمة الفحل، على الرغم من أن امرؤ القيس كان زوجاً لها، غير أنه لم يحتمل نقدها وإيثارها علقمة عليه فطلّقها...

وقبل أن أنتقل بكم إلى الحديث عن العصر الإسلامي، أود أن أشير

وعبلة من قوة الشخصية والجمال لما اغتنى تراثنا الشعري بلوحات غزلية رائعة كقصائد قيس وكُثَيّر وعنترة، وهذا دليل قاطع على أن المرأة العربية كانت منذ القديم ملهمة الرجل وصنوه في حياة البداوة.

هكذا كانت تعيش المرأة العربية حتى ظهور الإسلام الذي حفظ لها شخصيتها وفتح أمامها سبلاً واسعة للعمل والنشاط. لقد حرّم الإسلام وأد البنات، فاعتبره من الكبائر، ثم سمح للمرأة أن تستأمر في زوجها، وأن تطالب بالتفريق فيما بينها وبينه إذا ما أثبتت أنه يسيء معاملتها، أو يقصّر بواجباتها. ولقد حافظت المرأة العربية على هذا الحق في مطلع الإسلام واعتصمت به و لم تسمح لوليها أن يغتصبه منها. فهذه الخنساء بنت خزام يوم أتت إلى النبي العظيم بصحبة أبيها تشكوه إليه لأنه زوّجها من ابن أخيه كارهةً، فقال لها النبيّ الكريم: "إذا لمن تجيزي ما صنع أبوك فأنت حرة من هذا القيد" فقالت: "أجزت ما صنع أبي، ولكني أردت أن يعلم الناس أن ليس للآباء من أمور بناتهم شيء عند تزويجهن".

كما أعطى الإسلام للمرأة حق التصرف بأموالها بحرية كاملة، أي

أوصاها بالعلم، وقدّسها أماً، و لم يفرض عليها الحجاب قط. وبعد قليل سنشرح الدوافع التي أدت إلى فرض الحجاب على المرأة وإلى إقصائها عن المجتمع (بعد مرور أكثر من قرن على ظهور الإسلام). أما تعدد الزوجات، فالآية الكريمة التي أشارت إليه صريحة وواضحة، إنها تخوّل للرجل حق الزواج من أربع نساء على أن يعدل بينهن ولكنها تقول: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم). وفي هذه دلالة على أن الإسلام يحبذ الاكتفاء بزوج واحدة.

لقد كان النبي محمد (r) إلى جانب عظمته عالماً بطبيعة قومه خاصة، وبالطبيعة الإنسانية عامة، لذلك كانت السنّة، وهي جزء من الشريعة الإسلامية ليّنة يسيرة، مسايرة للعادات السائدة لكي تجذب إليها أكبر عدد من الوثنيين الذين كانوا يعيشون في فوضى مطلقة. ولكن بعض المسلمين فيما بعد أساؤوا للأسف تفسير النصوص القرآنية بدافع أهوائهم، أو جهلهم جوهر الدين، أو تزمتهم، أو ليس الرجال هم الذين احتكروا تفسير الشريعة، وتنسيق أحكامها؟؟؟

لقد قلت لكم في مطلع هذا الحديث أني لن أتعرض لمهاجمة الرجل

وحمداً لله على أن تعدّد الزوجات أخذ في الزوال تدريجياً. ولا شك في أن تونس قد خطت في هذا المضمار خطوات حاسمة منذ أن عدّلت قانون الأحوال الشخصية وألغت تعدد الزوجات إلا في الحالات القاهرة سنة١٩٥٧. أما في مصر وسورية ولبنان فلقد سُنت قوانين جديدة للأحوال الشخصية تركت للقضاة أمر السماح بتعدد الزوجات في حالات الضرورة القصوى، كما وُضعت قيود شديدة على الطلاق وعلى سنّ البنات لدى تزويجهن، وهذا ما نصبو إلى تحقيقه في سائر الدول العربية لحماية المجتمع وإنقاذه من مآسي مروعة تتكرر مع طلوع كل فجر.

برهنت المرأة العربية في صدر الإسلام على قدرتها على خوض مختلف الميادين، وبرز عدد كبير من النساء كان لأعمالهن أثر كبير في ازدهار التجارة والأدب وفي بناء الدولة العربية منهن مثلاً السيدة خديجة زوج الرسول التي قامت بدور كبير في حياته، إلى جانب ممارستها التجارة زمناً طويلاً بين الحجاز والشام ونجاحها فيها. أما الخنساء، فعدا عن كونها شاعرة متفوقة فقد ساهمت في بناء الدولة

الأربعة إلى الجهاد في موقعة القادسية وبقولها المشهور عندما بلغها نبأ استشهادهم جميعاً: (الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته).

ولقد كانت سُكَيْنة بنت الحسين، حفيدة الرسول الأعظم، تجمع في بيتها الشعراء والأدباء ليلقوا أمامها قصائدهم فكانت تنتقد ما يستوجب النقد ببراعة، وتثني على المجيدين وتكافئهم بجوائز من مالها وهكذا تحولت دارها إلى مجمع أدبي لم يحدث مثله في أوروبا إلا بعد ألف عام، في صالونات فرنسا الأدبية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. اشتُهرت سُكينة بجمالها وأناقتها، وبالعناية في تصفيف شعرها كما ذكر لنا صاحب الأغاني فكانت أول من نشر فنّ تزيين الشعر بين النساء العربيات. وجدير بالذكر أن عائشة بنت طلحة كانت تجمع الشعراء في دارها بالمدينة وتكرمهم في العصر ذاته.

كذلك نجد للمرأة بعد الإسلام، عدا عن أثرها في الحياة الأدبية، آثاراً مختلفة في الحياة الاجتماعية والسياسية: كانت النساء تشارك الرجل في مبايعة الخلفاء، وفي خوض المعارك. وكان من أبرزهن في

الباسلة زوج حبيب بن مسلمة القهري، التي رافقته إبان الفتوحات إلى تركية وأرمينية، وسألته ذات يوم "أين موعدك الليلة؟" فأجاب: "سرادق الطاغية أو الجن'" فوجدها في المساء وقد سبقته إلى سرادق العدو بعد أن تمّ احتلاله. كما لا يجوز أن نغفل ذكر عائشة أم المؤمنين، وهي أول مسلمة عربية أسهمت في الحياة السياسية نظراً لمواقفها الهامة أثناء حياة الرسول ولا سيما بعد وفاته. إن رسائلها وخطبها وإسهامها شخصياً في معركة الجمل (سنة ٦٥٦م) الشهيرة لأقوى دليل على إقدامها ومقدرتها وعلى الأثر البعيد الذي تركته في مجرى الأحداث آنذاك. لقد نبغت المرأة العربية في أكثر من ميدان في صدر الإسلام، حتى في الطب، فهذه كُعيبة بنت سعد الطبيبة العربية التي كان يقصد خيمتها الناس في مكة للتداوي أيام الحرب والسلم. أما في المواقف السياسية وفي المعارك فلم تتوان المرأة العربية عن القيام بدور هام في معركة "صفّين" التي اشتبكت فيها جيوش علي بن أبي طالب مع جيوش معاوية في العراق، فلقد كان لمساندة بعض شهيرات النساء يومئذ لعليّ ضدّ معاوية أثر بعيد في المعركة الحاسمة

الهلالية.وعندما تأسست خلافة بني أمية في دمشق، بعد أربعين عاماً من انتشار الدعوة الإسلامية، بلغت المرأة العربية أوج مجدها وبرهنت عن مقدرتها إبان العهد الأموي الذي دام حوالي تسعين عاماً من (٦٦١م-٧٥٠م). ومما يدل على المكانة السامية التي احتلتها يومئذ في المجتمع، قول الخليفة معاوية: (أنا ابن هند) عندما كان يتفاخر بنسبة نظراً لشجاعة أمه هند بنت عتبة وقد انتسب كثيرون غير معاوية إلى أمهاتهم اعترافاً بفضلهن وتكريماً لهن.

اشتهر الخليفة معاوية بحلمه وديمقراطيته فكانت النساء تتوافد على داره لأغراض متنوعة من بينها نقد سياسته بجرأة وصراحة. فكانت تقصده في عاصمة ملكه دمشق نساء من قبائل الحجاز والعراق، عُرفن بالوافدات على معاوية، ومن أشهرهن "سودة بنت عمارة" التي جاءت إليه من المدينة، فلما استأذنت ودخلت قال لها: أنت القائلة لأخيك:

شَمِّر كفعلِ أبيك يا بنَ عُمارةٍ

وانـــصُر عليّـــاً والحـــسَيْنَ ورهطَـــهُ

واقـــصُد لِهِنْـــدٍ وابنهـــا بِهَـــوان

قالت: "يا أمير المؤمنين مات الرأس، وبُتر الذَنَبُ، فـدع عنـك تذكرُّ ما قد نسي."ثم قال لها: "اَلَكِ حاجة؟" فأجابت: "إنك للناس سيّد، ولأمورهم مقلّد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال تقدم علينا من ينهض عزك، ويبسط سلطانك، فيحصدنا حصاد السنابل، ويدوسنا دياس البقر، هذا أيْسَرُ بن أرطأة، قـدم بـلادي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، فإما عزلته عنـا فـشكرناك، وإمـا لا فعرفناك!"

فقال معاوية غاضباً: "إياي تهدّدين بقومك! والله لقد هممـت أن أردك إليه على قَتَبٍ أشوس لينفّذ حكمه فيك". فسكتت ثم قالت:

صـــلى الإلـــهُ علـــى روحٍ تـــضمنَّهُ

قـــبرٌ فأصـــبح فيـــه العـــدلُ مـــدفونا

فنظر معاوية على جلسائه وكان عمرو بن العاص وسـعيد بـن

"إلي خاصةً، أم لقومي عامة؟ " فقال: "وما أَنْتِ وَغَيْرك" قالت: "هي والله إذا الفحشاء إن لم يكن عدلاً شاملاً، وإلا يسعني ما يسع قومي. فتأثر معاوية بكلامها وبقوة حجتها وأمر في الحال بقضاء حاجتها.

إن هذه القصة، وكثيرات غيرها من الحوادث المماثلة مدوّنة في كتاب من كنوز أدبنا العربي هو (العقد الفريد) وقد ألفه كاتب أندلسي عاش في قرطبة بين القرنين التاسع والعاشر هو أحمد بن عبد ربه.

تعرف العرب في العصر الأموي على حضارات غريبة عنهم، كاليونانية والفارسية، فظهرت تيارات جديدة في الشعر من أهمها الصوفية وكان أن تحول مركز النشاط الأدبي من سوق عكاظ إلى سوق المربد في البصرة فلم تتخلف المرأة عن المشاركة في النهضة الثقافية ومن اللواتي تركن أثراً في الشعر ليلى الاخيلية، والشاعرة الصوفية رابعة العدوية، وغيرهما.

قد نتساءل كيف استطاعت المرأة العربية أن تسهم في الحياة العامة بعد الإسلام لأنكم تظنون أن المسلمة قبل كل شيء، امرأة قد حُكم عليها بالانزواء، وفُرض عليها الحجاب، لهذا أريد أن أوضح لكم

ولا الانزواء، لقد أوصاها القرآن بالعفة، والاحتشام، وتغطية صدرها وظهرها وذراعيها وأوصاها بالعمل وحفظ لها حقوقها في الأسرة والمجتمع. كما أن النبي محمداً لم يحرم النساء شرف الجهاد، بل سمح لهن بمرافقته إلى المعارك ولكن أحداثاً متنوعة سياسية واقتصادية واجتماعية طرأت على حياة العرب بعد الفتوحات الإسلامية أدت إلى تطوير التقاليد العربية من جهة وإلى إضعاف العنصر القومي من جهة أخرى وذلك بعد أن أقبل الرجل على معاشرة سبايا الحروب والأعجميات! ولقد بلغ العرب أوج ازدهارهم خلال العصر العباسي، وبالغوا في ترفهم، فطغى الانحلال الخلقي على المجتمع مما أدى إلى إقصاء الحرائر من النساء عنه خوفاً من أن يلحق بهن الفساد. لذا فرض الرجال على المرأة الحجاب باسم الدين البريء من هذا التجنّي، وفي هذا المعنى يقول الإمام رشيد رضا في كتابه (نداء إلى الجنس اللطيف): "وليس الحجاب من أصول الشريعة، وإنما وُضع لسدّ الذريعة" لهذا السبب توقف نصف الأمة العربية عن العمل والتقدم بانتشار الأمية في صفوف النساء، ثم تبعه النصف الآخر

الأستاذ "ايمليو غارثيا غوميس" في مقدمته لكتابه الذي وضعه عن الشعر الأندلسي: "عندما انتقلت الخلافة من أيدي الأمويين، المولعين بحياة البداوة، الاستقراطيين المحافظين، إلى أيدي العباسيين فَقَد الشعر العربي القديم الكثير من ميزاته ومعانيه فلم تعد البدوية الحرة، والمرأة العربية الرائعة الجمال، حبيبة الشاعر العربي، و لم يعد الشاعر نفسه لسان حال القبيلة السياسي وإنما أصبح مصوراً لحفلات النبيذ والمحرّمات والعادات الجديدة المستهجنة" .

في هذه الأسطر القليلة أوضح لنا هذا الأستاذ الكبير التطور الذي طرأ على الشعر في العصر العباسي الذي نحن في صدده وهذا رأي قابل للنقاش غير أنه يثبت أن الأدب كان منذ القديم وما زال اصدق مرآة للمجتمع والعادات.

قبل إنهاء الحديث عن العباسيين لا بد من أن نعترف أن الموسيقى والغناء عرفا في العصر العباسي ازدهاراً كبيراً فلقد نبغ في هذا الفن كثير من الإماء والمحظيات ولا شك في أن المرأة العربية، التي فُرض عليها الحجاب والانزواء يومئذ، قد أولعت بهذا الفن الرفيع، ونبغت

شاعرة، تجيد قول الشعر والغناء، لا بل جاوزتهما إلى التلحين، وكثيراً ما كان أخوها الرشيد يهتز طرباً عند الاستماع إلى عزفها وغنائها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أثر الموسيقى الشرقية والغناء العربي في الأندلس بعد أن انتشرا في قرطبة واشبيلية وغيرهما عن طريق انتقال بعض كبار الفنانين وبعض المحظيات من بغداد والحجاز إلى ديار الأندلس، ولا سيما بعد هجرة "زرياب" من بغداد إلى قرطبة. وبعد ذلك عرفت بلاد الشرق العربي موجات متتالية من الغزوات والحروب، منها الحروب الصليبية، وغزوات المغول، والتتر، فعاشت بضعة قرون مضطربة، تعرّضت خلالها لمختلف أنواع النكبات إلى أن وقعت تحت نير الحكم العثماني عام ١٥١٦ الذي سيطر على البلاد العربية كافة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨. وهكذا نرى أنه لم يظهر للمرأة العربية أي أثر يذكر خلال هذه الحقبة الطويلة إلا اليسير من النشاط الأدبي، أهمه ظهور (عائشة الباعونية) الشاعرة الدمشقية في القرن السادس عشر الميلادي. وفي النصف الثاني من القرن الماضي لمعت بعض الوجوه النسوية إبان اليقظة التي كانت

ولا بد لي، قبل التحدث عن النهضة الجديدة من استعراض حياة المرأة العربية وأثرها في الأندلس، في العصر الذي ازدهرت فيه قرطبة، بينما كانت كل من دمشق وبغداد في دور الانحطاط. عندما بلغت الحضارة العربية ذروتها في الأندلس، في أواخر القرن الثامن الميلادي، انعكس الازدهار الفني والفكري على المرأة العربية الأندلسية وهذا يؤكد ما سبق أن أشرت إليه في مطلع هذا الحديث من أن حياة المرأة تتأثر دائماً بعوامل الازدهار أو الانحطاط التي تطبع الجو الذي تعيش فيه. ومما لا شك فيه أن الكثيرات من النساء في عهديّ الإمارة والخلافة في قرطبة، قد انصرفن انصرافاً كلياً إلى العلوم والآداب والفنون مما جعل ولعهن بها، طوال ثلاثة قرون، حادثاً تاريخياً عظيماً. فلقد علمنا أن قصر "الحكم الثاني" قد احتضن نساء مثل (لبنة) العالمة في اللغة والرياضيات وأن عشرات غيرها نبغن في الفن والأدب ولا سيما في إتقان الخط والانصراف إلى نقل المخطوطات النفيسة، يوم كان الأمراء والخلفاء الأمويون في قرطبة مولعين بالعلوم والآداب، ومهتمين الاهتمام كله بتوسع مكتباتهم وإغنائها وبين اللواتي اشتهرن

في نقل المخطوطات (صفية بنت عبد الله) والشاعرة المجيدة (عائشة بنت أحمد).

حظيت عائشة بنت أحمد القرطبية بتكريم واحترام الخليفة عبد الرحمن الثالث لسمو مكانتها، وخدماتها الأدبية، ويذكر المؤرخون أنها كانت تملك مكتبة خاصة مؤلفة من أنفس الآثار التاريخية والفنية التي نقلتها هي ببراعها. وبين الوجوه النسوية التي أسهمت في حضارة الأندلس العربية، أمرأة عظيمة، تركت أثراً كبيراً هي: "نظام" التي كانت أمينة للسر في قصر هشام بن الحكم فاشتهرت ببراعتها في تدوين الوثائق السياسية والإدارية، وكانت ذات عقل راجح وبيان بليغ، هذا إلى جانب عدد كبير من اللواتي كان لهن فضل كبير في نشر التعليم، وتدريس الصرف والنحو والعروض، في مختلف أنحاء الأندلس، ومنهن مريم بنت يعقوب الأنصاري، التي كانت تطوف على بيوت اشبيلية، فتعلم نساءها الشعر والأدب أيام المهدي صاحب اشبيلية. كما أن إحدى فتيات بلنسية التي لُقّبت (بالشاعرة العروضية) قد تلقت النحو واللغة على الإمام أبي المطرف، وعلي عبد

الرحمن بن غلبون، ثم تفوقت فيهما وقد قرأ عليها العالم يوسف بن نجاح وأخذ عنها علم العروض.

ومما يجدر بالذكر أن جولات المرأة العربية في ميدان الأدب هي التي خلدتها في الأندلس وحبذا لو كان بإمكاني أن أتوسع في هذا الموضوع الشيق ولكن ضيق الوقت يضطرني للاختصار، ولذكر بعض الشهيرات فقط. فهذه رضية الشاعرة القصصية، التي سُمّيت في قرطبة "الكوكب الساطع" تقوم برحلة إلى الشرق العربي بعد وفاة الأمير الحكم الثاني، وتلقى أرحب استقبال وأعظم تكريم من علمائه آنذاك. وحيث أتينا على ذكر الرحلات فلا بد لنا من القول بأنها لم تنقطع بين علماء الشرق العربي وعلماء المغرب العربي والأندلس، وإليها يعود الفضل في اتساع التبادل الفكري والفني بين الشرق والغرب، ذلك التبادل الذي جنت الحضارة الإسلامية في الأندلس ثماره على نطاق واسع. وإذا عدنا إلى النابغات من نساء الأندلس نجد في طليعتهن شاعرات مجيدات أذكر منهن (ولادة بنت المستكفي) التي ترجم بعض أشعارها المستشرق العلامة اميليو غارسيا غوميس، و

أشعارها، وسحر جلساتها ونوادرها مع كبار أدبـــاء عـــصرها، وفي طليعتهم أبو بكر المخزومي الأعمى، كما لا بد من ذكـــر شـــاعرة صيغت من الجاذبية، وجُبلت من الفتنة هي (حفصة بنـــت الحـــاج الركونية).

أما انتشار الموسيقى والغناء في الأندلس فيجمع المؤرخون على أن الفضل فيه يعود إلى رائدهما الأول (زرياب) أكبر فنان عرفته بغداد. لقد قدم زرياب الأندلس في القرن التاسع تلبية لدعوة الحكـــم بـــن هشام، ولكنه لم يصل إلى قرطبة إلا بعد وفاته، فاستقبله الأمير عبـــد الرحمن الثاني، وأكرمه كل الإكرام، وجعله أنيسه وسمـــيره. كـــان لزرياب ولجاريتيه: (مصابيح، ومتعة)، ولبنتيه الفنانتين: (حمدونـــة، وعلية) أثر كبير في نقل كثير من العادات الشرقية العربية إلى بـــلاد الأندلس، إلى جانب الأثر الفني. كما قامت الجواري في الأنـــدلس بدور هام في ميدان الأدب والغناء بعد أن استقدمهن أمراؤها مـــن بغداد، فنحن نجد بين أكثرهن نبوغاً الشاعرة (قمر) الـــتي اشـــتراها صاحب اشبيلية إبراهيم بن الحجاج، و (الزهراء)، جارية الخليفة عبد

المدنيات، اللواتي كان يصحبهن إلى الأندلس الأمراء والوجهاء لدى عودتهم من مواسم الحج، فقد اشتهرن بالفضل والعلم وإتقان الموسيقى والغناء وساهمن في تطوير النهضة الفنية في الأندلس وفي تعزيزها مساهمة فعالة، وحظين بمكانة سامية حسدتهن عليها الحرائر. إن أشهرهن (عابدة المدينة)، التي تجاوزت الأدب والغناء إلى الفقه وكانت تروي عن مالك بن أنس وغيره من أئمة المدينة، وقد تزوجها بشر بن حبيب الأندلسي، ورزق منها كل أولاده.

ومما يجدر التنويه به، أن المرأة الأندلسية بقيت مولعة بالفن حتى بعد خروج العرب من الأندلس فلقد نقل الكاتب العلامة الدكتور غريغوريو مارانيون (Gregorin Maranon) في كتابه "أبناء فيليس الثلاثة" (Los Tres Veles) وصفاً لامرأة إسبانية غرناطية من السلالة العربية، كان قد نشره في القرن السادس عشر الأديب الاسباني (هورتادو دي مندوسا) (Hurtado de Mendoza) وصف فيه إحدى نسيبات "ابن حميّة" جاء فيه: (إنها امرأة رائعة الحسن، كريمة الأصل، جذابة الحديث، قوية الحجة، بارعة

في العزف على العود والغناء والـرقص علـى الطـريقتين العربيـة والاسبانية...)

والآن سيداتي وسادتي أستميحكم عذراً إذ أنتقل بكم من ديـار الأندلس إلى الشرق العربي لاستكمال هذه الدراسة، وقد تركناه قبل قليل في فجر يقظته الذي انبلج في النصف الثاني من القرن الماضي في كل من مصر وسورية ولبنان أولاً، ثم في باقي البلاد العربية.

بدأت طلائع اليقظة تنتشر في الآفاق وقد شعّ نورها بين صفوف الرجال أولاً، ثم بين صفوف النساء، حيث عرف عالمنا العربي كبار المصلحين أمثال الأساتذة جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبـده وقاسم أمين في مصر، والشيخ طاهر الجزائري في ديار الشام. كـان لهؤلاء المصلحين الأثر الفعال في دفع العالم العربي إلى التحـرر مـن الجهل والظلم المسيطرين على المجتمع ولقد دعا قاسم أمين (صـديق المرأة) في كتابيه: "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة" إلى إنصاف المـرأة، وضرورة تعليمها، وإسهامها في الحياة الاجتماعية لكـي تتكامـل عناصر النهضة المرجوّة كما لقي نداء الإصلاح بعض الأصـداء في

الجديدة. أما العنصر النسوي الواعي فلقد استقبل آراء قاسم أمين بحماسة وترحيب، فأيدها في بادئ الأمر كاتبتان مصريتان مرموقتان هما: عائشة التيمورية، وباحثة البادية، فنشرتا المقالات والدراسات بجرأة تدعو إلى الإعجاب، مطالبتين بالعودة إلى الشريعة الحنيفة نفسها لتطبيق المبادئ العادلة التي تحفظ للمرأة المسلمة كيانها وحريتها، وتحثّها على العلم والعمل في سبيل خدمة وطنها ومجتمعها. حتى أن باحثة البادية أصرت على تطبيق المساواة بين المرأة والرجل في الواجبات والحقوق لبناء الوطن العربي الجديد، على أسس ثابتة ناجعة في كتابها "نسائيات" وفي أوائل القرن الحاضر بدأت الأصوات النسوية المتحررة تُدَوّي بإيمان وثقة في الأجواء الجديدة فأخذ عدد الكاتبات في صحف ومجلات القاهرة وبيروت ودمشق يتزايد عاماً بعد عام، وما هي إلا سنوات حتى ازدهرت نواة النهضة النسوية فأسست السيدة هدى شعراوي في القاهرة الاتحاد النسوي العربي عام ١٩١٩، الذي كان ثمرة جهود متواصلة، بذلتها المرأة العربية الجديدة لتحقيق هدفها السامي في المشاركة بتحرير الوطن من الاستعمار

في النهضة الأدبية والاجتماعية خير إسهام بمقالاتها ومحاضراتها وأحاديثها في ندواتها الأدبية الشهيرة التي كانت تُعقد في القاهرة ما بين عام ١٩١٢ وعام ١٩٣٢م...وحذت حذو ميّ زيادة في لبنان جوليا طعمة دمشقية ببيروت وماري عجمي بدمشق وكثيرات غيرهما في الربع الأول من هذا القرن.

أما المرأة العربية في سورية فلم تتأخر عن الاشتراك في المعركة الجديدة بل خاضتها منذ البدء بشجاعة وثقة كبيرتين لأنها كانت مقدّرةً الدور الهام الملقى على عاتقها للإسهام في نهضة وطنها وتحريره.

لقد اقتصر نشاطها في بادئ الأمر على العمل في المشاريع الخيرية ثم تعداه إلى الميادين الثقافية والفنية والوطنية، إن لم نقل السياسية. ففي عام ١٩١٩ أسست السيدة نازك العابد مجلة "نور الفيحاء" ثم جمعية "النجمة الحمراء"، لإسعاف الجرحى على غرار جمعية الصليب الأحمر. كما أسست هذه السيدة العظيمة مستشفى عسكرياً إبان العهد الفيصلي، وداراً لرعاية أبناء الشهداء، وخاضت بنفسها معركة ميسلون كأي جندي عام ١٩٢٠ على الرغم من أنها كانت يومئذٍ

ومدنيّات، عن النضال المباشر في سبيل تحرير الوطن من الاستعمار الأجنبي فإن مواقف المرأة العربية السورية خلال ثورة عام ١٩٢٥ في المدن الرئيسية، وفي الغوطة، وفي جبل العرب، حيث قدمت أجلّ الخدمات إلى الثوار الأحرار، تشهد لها على مرّ الأيام بالبسالة والجرأة والوطنية. كما أن مدينة دمشق وشوارعها وحاراتها لم تزل تذكر حتى اليوم في ضميرها الصامت الأمين أسراب السوريات العربيات اللواتي كن يخرجن من دورهن وهن متحجّبات ليتجولن فيها متظاهرات ضدّ الانقلاب الفرنسي، أو لارتياد دار المعلمات والجامعات ومدارس الإناث طلباً للعلم.

وهنا لا بد من ذكر مجلة "العروس" التي أصدرتها في دمشق، وأشرفت على تحريرها الأديبة الآنسة ماري عجمي، في حوالي عام ١٩١٩، أيضاً.لقد خدمت ماري عجمي نهضة بلادها منذ البداية، إذ كانت رائدة الأدبيات في سورية تكتب الشعر والنثر، وكانت من أفضل المربيات، وكرست حياتها للأدب وللتعليم والتشجيع، تشجيع المرأة على احتلال المكان اللائق بها في الوطن المتطلع نحو الحرية

وتأدية الخدمات الصحية والثقافية جمعيّتي "نقطة الحليب" و "النادي النسائي الأدبي" اللتين تأسستا في دمشق عام ١٩٢٢ واللتين ما زالتا تقومان بالواجب الاجتماعي وتؤديان أجلّ الخدمات. كذلك لم تتأخر المرأة السورية عن تأدية الرسالة الثقافية لمجتمعها الناهض إذ لم تكتف بالإقبال على العلم فحسب وإنما برزت إلى الميدان من بابه العريض، فأسست معهداً لتعليم الفتيات سمّته "دوحة الأدب" عام ١٩٢٧، فإذا به ينمو ويترعرع مع السنين ويصبح مؤسسة ثقافية هامة، ذات فروع في دمشق، بقسميه الابتدائي والثانوي، الخارجي والداخلي. ومع الأيام تطورت مظاهر النهضة النسوية في مختلف أنحاء سورية فأنشأت المرأة جمعيات عديدة ذات أهداف متنوعة لإيواء الأيتام واللقطاء، وتقويم الأحداث الجانحين وتعليمهم، وتشجيع الصناعات الشامية والمهن اليدوية للنساء ومكافحة الأمية.

تدل الإحصاءات الأخيرة على أن في سورية اليوم (٦٠٨٠٠) معلمة وأستاذة بين موظفي وزارة التربية والتعليم للتدريس في قسمي التعليم الابتدائي والثانوي، عدا عن المعلمات في المدارس الخاصة،

سورية لا يجاوز خمسة ملايين عرفنا بوضوح أن المرأة السورية مولعة بالعلم والتعليم بصورة مدهشة حقاً! إنني أتكلم عن هذا العام الحالي عام ١٩٦٣.

ومما لا شك فيه، أن المرأة العربية الجديدة في كل من العراق والكويت والأردن وفلسطين وتونس ومراكش والجزائر والسودان وليبيا قد برزت إلى الحياة الجديدة بمواهبها المختزنة وأخذت تنهل من ينابيع المعرفة، وتشعّ على مجتمعها ووطنها العربي الكبير نوراً أخذ يزداد قوةً وبهاءً يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، ليبدّد ظلمات الماضي الأليم... وإني لحريصة كل الحرص في هذه الدراسة على التأكيد بأن الانسجام بين الطبقات النسوية المتيقظة في مختلف أقطار العروبة من جهة، وتصميمها على متابعة الكفاح لبلوغ الهدف الأسمى من جهة ثانية، كفيلان بتحقيق أمل كبير نتوق إلى تحقيقه. إن أملنا لكبير في أن تستعيد المرأة العربية في المستقبل القريب مكانتها الرفيعة في صفوف الأمة، مواطنة عاملة، وأماً مثقفة، ومعلمة مؤمنة، وجندياً مدرباً على أتم الاستعداد للقيام بالواجب، أينما يدعوه الواجب. لقد

الوطن، وذلك على الرغم من غيابها عن ميـــدان العلـــم في فتـــرة الاستعمار الطويلة في بلادها الجميلة، ويؤسفني كثيراً أن يحول ضيق الوقت بين وبين رغبتي في شرح مراحل نهضة المرأة العربية في كـــل الأقطار، لذا أراني مضطرة لإعطائكم فكرة عامة عن الموضوع، كما أسمح لنفسي ببيان الأحداث التي أدّت إلى هذه اليقظـــة في الـــشرق العربي وتفصيل التطورات التي طرأت على نهضة المـــرأة في ســـورية بشيء من التفصيل لأني مطلعة عليها أكثر من غيرها ولأني رافقـــت مراحل هذا التطور مّن سنة ١٩٤٣.

أعتقد أن على كل باحث في مثل هذه المواضيع أن يكون منصفاً وأميناً لهذا أؤكد هنا بصراحة، أن المرأة العربية الجديدة، مدينة، على مدى الأجيال، لرائدات النهضة الحديثة اللواتي حملن لواء النـــضال، ومشعل الحرية والنور، يوم كانت الطريق وعرة محفوفة بـــالعثرات، ويوم كان أفقها مظلماً متلبداً بالغيوم الدكناء. لاقت رائدات النهضة العربية بعض المساندة والتشجيع من الرجل، كما تعرضن لمشكلات كثيرة ومعارضة قوية ولكن الإيمان والثبات اللذين رافقـــاً نـــداءهن

العربية المتحررة منذ بدء نهضتها، هو استعادة المكان اللائق بها في الأمة بعد تحرّرها من الظلمات المادية والمعنوية، ألا وهي الحجاب والجهل. بفضل عزيمتها إذن توصلت المرأة المناضلة في بعض بلاد العرب السباقة إلى تحقيق أهدافها السامية، فانصرفت إلى دور العلم، تتزود منها بالمعرفة، وخاضت ميادين العمل، تقدم خدماتها للمجتمع الجديد، فأحرزت ثقة الرجل وتقديره شيئاً فشيئاً، ولهذا نراها اليوم قطعت أشواطاً بعيدة في دروب التقدم والازدهار في أكثر البلاد العربية، لأنها تخطو خطوات جبارة، حافزها إيمانها بالحق وحبها لبلادها وثقتها بنفسها، لذا نقول إن وثباتها في هذه المرحلة تدعو حقاً للإعجاب نظراً للوعي الذي رافق جهودها منذ البداية، وللنتائج المذهلة التي توصلت إليها في حقبة نستطيع أن نقول إنها قصيرة لأن حياة الأمم كما تعلمون لا تقاس بالسنين، إنما بعشرات السنين بل بالقرون.

الأمثلة على تقدم المرأة العربية السريع، كثيرة ومتنوعة، وتاريخ الجامعة السورية في دمشق من أكثرها أهمية وأبعدها مغزى فيوم

"الحقوق والطب" سبعة وتسعين طالباً بينهم ثلاث عشرة فتاة فقط انتمين لفرعيّ التمريض والولادة. ثم ازداد عدد الفتيات في الجامعة ازدياداً ملحوظاً في السنوات التي تلت، وخاصة عندما افتتحت الجامعة كليات جديدة لدار المعلمات والآداب والتاريخ واللغات والتجارة وأخيراً للهندسة. إن آخر إحصاء جرى في جامعتيّ دمشق وحلب عام ١٩٦٢ يعلمنا بأن عدد جميع طلاب هاتين الجامعتين قد بلغ ١٥ ألف طالب، بينهم ٣٥٠٠ فتاة، وهذا يعني أن ربع المجموع تقريباً من النساء. ومنذ حوالي ربع قرنٍ طالبت المرأة العربية بحقوقها السياسية في كل من مصر ولبنان وسورية وكانت سورية أول دولة عربية اعترفت للمرأة بحق الانتخاب عام ١٩٤٩ شريطة أن تكون حاصلة على شهادة التعليم الابتدائي، وأذكر جيداً المصادفة الحلوة التي رافقت قرار الحكومة السورية في أوائل عام ١٩٤٩، إذ كنت أمثل بلادي وقتئذ مع سيدتين زميلتين في مؤتمر لجنة شؤون المرأة المنبثق عن هيئة الأمم، و لم تكد أعمال المؤتمر تنفضّ حتى فوجئنا بإعلان قرار الحكومة السورية الذي كلّل مساعينا بالنجاح... وبعد

والعراق للمرأة بهذه الحقوق، وهكذا نرى أن الرجل العربي نفسه أصبح قانعاً بضرورة مشاركة المرأة في بناء المجتمع الحديث وفي خدمته لكي يصبح هذا البناء متين الأركان، ولكي يضمنا معاً التقدم المرجوّ له. لقد فتح الرجل أمام المرأة أبواب المعاهد والجامعات، ومهّد لها طريق العمل والإنتاج واضعاً فيها ثقته الكبيرة، واليوم نجد أن التعليم الابتدائي قد أصبح إجبارياً في البلاد العربية المتقدمة، وأن الجامعات مفتوحة لاستقبال المرأة في مختلف فروعها، وأن المرأة قد اقتحمت ميادين العمل الحر والحكومي، وفي الشركات، دون أن تلقى أية معارضة بل على العكس فإنها لم تجد إلا التقدير لعلمها وكفايتها، والتشجيع على إقدامها وعلى والتحرر من التواكل.

وأخيراً أؤكد أن المرأة العربية الحديثة أدركت أن الحرية تؤخذ ولا تعطى، فكان لها ما أرادت... ويجب أن أذكر أيضاً إن الكثيرات من العربيات المثقفات قد مثّلن بلادهن في المؤتمرات الدولية في الأعوام التي تلت الحرب العالمية الثانية، وأن سورية والمغرب قد وافقتا على قبول المرأة عضواً رسمياً في السلك الدبلوماسي حتى غاية اليوم.

لقد أطلت الحديث أيها السيدات والسادة عن دور المرأة الإيجابي والآن اسمحوا لي بأن أقول لكم إن دورها غير المباشر في الوطن والمجتمع أكثر أهمية وابعد أثراً فعندما تنشئ المرأة أبناءها تنشئة صالحة، وعندما تكون مقدّرة لواجبها الوطني والاجتماعي، فتقوم به أينما كانت خير قيام، وعندما تضفي على وسطها أفضل ما تحمل في صدرها من العواطف الإنسانية النبيلة، من حبٍ وإيمانٍ، ورقة وحنان،، فإنها تكون قد أدّت إلى وطنها وإلى الإنسانية أجلّ الخدمات، وأضفت على الحياة البهجة وأجمل الصفات!

ويطيب لي أن أشير إلى أن المرأة العربية تلتقي دائماً بالمرأة الاسبانية لأن صفات إنسانية بارزة تجمع بينهما في طليعتها الاهتمام بالأسرة، وتدعيم الروابط بين جميع أفرادها، ثم هذا الشعور القوي بالعزة والكرامة الذي تجلى في جميع تصرفات كل منهما، وأخيراً حرص المرأة، كل من المرأة العربية والاسبانية، على نيل ثقة الرجل، وعلى السير إلى جانبه في طريق الحياة الطويل، ساعيةً إلى أن تجعله ممتعاً وخصباً.

لقد اضطر أحد مشاهير الخطباء من أجدادي (ابن السمّاك)(أن يتكلم في الناس وكانت له زوجة ذكية ذواقة يقدّر رأيها فسألها عندما

(كيف سمعت كلامي؟).

فأجابت بالحال:

(ما أحسنه لولا أنك تُكثر ترداده!).

فقال:

(إني أردّده يا عزيزتي حتى يفهمه من لم يفهمه).

فقالت:

(على أن تُفهمه من لم يفهمه يكون قد ملّه من فهمه..)

وخشية أن يعتريكم الملل، وخشية أن أتعرض لنقد زوجي بعد قليل إذا ما تماديت في الحديث، أختم هذه المحاضرة قائلة لكم من أعماقي: شكراً جزيلاً!

المصادر والمراجع

١– الأغاني – أبو الفرج الأصبهاني.

٢- العقد الفريد – أحمد بن محمد بن عبد ربه.

٣ – نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب – المقري.

٤ – الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية –الأمير شكيب ارسلان.

٥ – ديوان ابن زيدون ورسائله.

٦ – نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين – محمد عبد الله عنان.

٧ – ضحى الإسلام وظهر الإسلام – أحمد أمين.

٨ – مدريد العربية – الدكتور محمود علي مكي.

٩ – في الأدب الأندلسي – الدكتور جودة الركابي

١٠ – تاريخ اللغة الاسبانية – رافائيل لابيسا – مدريد –

Historia de la Lengua Espanola – Rafael Lapesa – Madrid – 1942

١١ – تاريخ اسبانيا – رامون مينينديس بيدال – الجزء الرابع (أسبانيا المسلمة) – مدريد.

١٢ – المسلمون الاسبان – خوان فيرنيه – برشلونا.
Los Musulmanos Espnoles – Dr. Juan Vernet – Barlelona
١٣ – الحضارة العربية في اسبانيا – ليفي بروفنسال.
La Civilision des Arabes en Espagne – Levi Provencal
١٤ – اسبانيا المسلمة – كلاوديو سانشيت البرنص – بوينس آ يرس.
La Espana Muslumana – Claudio Sanchez Albornos – Buenos Aires
١٥ – مسجد قرطبة – روخيليو توريس بالباس مدريد.
La Mezquita de Cordoba Rogelio Torres Balbas – Madrid
١٦ – أشعار عربية أندلسية – إميليو غارثيا غوميث – الطبعة الرابعة مدريد ١٩٥٩.
Poemas Arabigoandaluces – E.Garcia Gomez Madrid 1959
١٧ – تأملات اسبانية – خوسي ماريا بيمان – باريس ١٩٦٤.
Meditation Espagnole – Jose Maria Peman – Paris 1964.
١٨ - أبناء فيليث الثلاثة – الدكتور غريغوريو مارانيون – مدريد ١٩٦٠
Los Tres Velez – Dr. Gregorio Maranon- Madrid 1960.
١٩ – أعياد الشُّعَل في بلنسية – فرانسيسكو أليلا دي فيفيس – بلنسية ١٩٥٧.
Las FAllas de Valencia – Fransisco Almela de Vives Valencia – 1957

٢٠ – الرقص الأندلسي – كاباليرو بونالد – برشلونا.
La Danse Andaloiuse – Caballero Bonald – Barelona
٢١ – الأدب العربي – كليمانت هوارت – باريس.
La literature Arabe – Cpement Haurt – Paris
٢٢ – شعراء عرب وإسبان – كارلوس كيروس رودريغيث – مدريد
Poetas Hispanorabes – Carlos Quiros Rodriguez – Madrid – 1952.

` ` `

n

الموضوع	رقم الصفحة
عندما تتألق الحياة: سلمى الحفار الكزبـــري وإرادة المعرفة للأستاذ الدكتور عبد النبي اصطيف.	٣
سلمى الحفار الكزبري ذاكرة التاريخ والاعتزاز بالهوية	٩
عاشقا قرطبة: ولادة وابن زيدون	١٩
أثرنا في إسبانيا	٧٣
المرأة العربية	١٢١

سلمى الحفار الكزبري

ولدت سلمى بنت لطفي الحفار الكزبري في دمشق عام ١٩٢٢، وتلقت تعليمها في المدارس التبشيرية، معهد راهبات الفرنسيسكان بدمشق من الابتدائية حتى الثانوية، وعملت في المؤسسات الاجتماعية والإنسانية والأدبية، وحملت شهادة في اللغة الإسبانية ، وكان والدها لطفي الحفار السياسي السوري، وأحد أقطاب الكتلة الوطنية في سورية أيام الانتداب الفرنسي، وفي مطلع الاستقلال، وتسلم رئاسة الوزارة آنذاك، وظل بيته مقر علم وجهاد وطني وسياسي، وتعلمت سلمى أصول اللغة العربية على يد والدها يوم نفته السلطات الفرنسية إلى مدينة آميون في لبنان، وتعلمت القرآن وحفظت منه على يد شيخة، وأتقنت اللغات الفرنسية والانكليزية، مثلما أتقنت العربية على يد الأديبة السورية ماري عجمي، وحالت ظروف عائلية قاهرة بينها وبين إتمام دراستها الجامعية، غير أنها تابعت العلوم السياسية بالمراسلة مع معهد اليسوعيين في بيروت ٠ وتزوجت من محمد كرامي شقيق عبد الحميد كرامي، وأنجبت منه ولدا، ولكنها ترملت بعد ولادة الطفل بشهر ٠ وعادت إلى سورية عام ١٩٤٨، وتزوجت من الدكتور نادر الكزبري، وأنجبت منه بنتين، وسافرت مع زوجها إلى الارجنتين وتشيلي حيث كان يعمل وزيرا مفوضا لسورية، وتعلمت في البلدين اللغة الإسبانية وحصلت على دبلوم رسمي ٠ وانتقل زوجها إلى مدريد سفيرا لسورية، وانتسبت إلى جمعية الكتاب هناك وألقت محاضرات باللغة الإسبانية عن المرأة العربية وأثرها في التاريخ والأدب ٠ وتنقلت بين عدة عواصم عربية وعالمية، ولكن حياتها الأوسع كانت بين دمشق مسقط رأسها وبين لبنان، إذ فضلت البقاء في بيروت مع الصامدين في وجه العدوان الصهيوني، وفيها أسلمت الروح، ووريت الثرى في مثبرة الشهداء في أواخر شهر آب عام ٢٠٠٦.

د . عبد الله أبو هيف

كاتب وقاص وناقد وأستاذ جامعي، ولد في الرقة عام ١٩٤٩. ويعمل مستشاراً لوزير الثقافة، حصل على دكتوراه في العلوم اللغوية والأدبية من معهد الاستشراق بموسكو عام ١٩٩٢، و دكتوراه في النقد الأدبي الحديث من جامعة دمشق عام ١٩٩٩. نشر عشرات الأبحاث والمقالات والدراسات في الدوريات العربية، له أكثر من ثلاثين كتاباً، في القصة والنقد والفكر و أدب